

د. ساي
الدروني



الرواية

في الأدب الروسي

د . سامي الدروبي

الرواية في الأدب الروسي

الرواية
في الأدب الروسي



هذا الكتاب

حين سأل عميد الادب العربي طه حسين المستشرق الروسي فلاديمير كراستوفسكي رأيه في ترجمة سامي الدروبي الاعمال الكاملة لدوستوفسكي قال :

« لو أن دوستوفسكي كتب بالعربية لما كتب أجمل من ذلك » وكتب أحمد بهاء الدين عن ترجمات الدروبي في المصور مايلي :

« ان سامي الدروبي يملك ناصية اللغتين الفرنسية والعربية ، وهو يترجم ترجمة علمية مدروسة ، فوق الحس الادبي والفني الملائم لها تماما بالاضافة لفهمه لروح الكاتب مما جعلت ترجماته مختاره ونهائية . وقد عمل بجهد حتى استطاع ان يترجم ثمانية وعشرين كتابا، منها الاعمال الكاملة لدوستوفسكي في ثمانية عشر مجلدا ومن اعمال تولستوي خمسة مجلدات ، وابنة الضابط لبوشكين ، ومياه الربيع لنورجنيف وبطل من زماننا ليد منتوف والموسيقى الاعمى للكورولنكو ولحن كرويتزر لتولستوى والزوج الابدي لدوستوفسكي .. »

وبعد .. فمن ياترى أجدر من الدروبي ليطلعنا على / الرواية في الادب الروسي / من القرن الرابع عشر ولغاية القرن العشرين .. واذا كانت مخطوطة هذا الكتاب لم تر النور في حياة الدروبي فها نحن ننشرها ليستمتع القارئ العربي بعطاء الدروبي بعد رحيله .

الناشر

مقدمة

وأنا أقلب دفاتر زوجي وزوايا مكتبته . بعد فترة من رحيله عني وعن الأدب العربي الذي أسهم فيه بما ليس فيه مجالاً لشرحه هنا وجدت على ثلاث دفاتر هذا العمل الأدبي الذي أضعه بين أيدي قراء العربية اتماماً لرسالة زوجي التي نذر عمره لها ولأكون صادقة مع القارئ لم أستطع أبداً عندما أعدت قراءتها أن أكشف ما اذا كان هذا العمل قد خلقه الدكتور سامي الدروبي أم أنه مخلوق بلغة أخرى وهو يعيد ترجمته لقراء العربية . أن السبب الذي يجعلني أقول هذا يعرفه القراء والنقاد وهو ان الدكتور سامي الدروبي لم يكن مترجماً وإنما كان يعيد خلق العمل الذي بين يديه من جديد لكن الأمانة تقتضي ان أطلب من كل قارئ يعرف المصدر الصحيح لهذا المؤلف ان يتفضل باعطائي النسخة الأجنبية وبأية لغة كانت ليتدارك الناشر في الطبعة الثانية مايجب ان يكون .

دمشق ٢٧/٧/١٩٨١

إحسان بيات الدروبي

«أدب الرواية»

ان الشعب الروسي الذي ظل حتى هذه السنين الأخيرة أميا برمته على وجه التقريب فلم يتح له الاتصال بالأدب المكتوب على انه ينعم بأسمى درجات العاطفة والخيال والحس الموسيقي قد تمتع بأدب شعبي غني ترويه الاجيال بعضها عن بعض ولا يضارعه أدب شعبي في أي بلد من بلدان العالم .
شعر الملاحم - بينما نرى شعر الملاحم قد مات منذ قرون عند معظم الشعوب ، نرى في شمال روسيا ، في مناطق اولونس وأرخنجلك . رواة من الفلاحين ينشدون أغاني الملاحم الروسية . وقد درج النقد الأول على ان يسمى هذه الاغاني (بالقصص الحق) Bylines في حين ان الشعب لا يعرفها الا باسم (قصص الزمان السالف) .

وان هذه الأغاني لتطرح عدة مشكلات . ويتفق الناس اليوم على ان هذه الأغاني ليست مبدعات شعبية عفوية ، وانما هي صنيع شعراء من أمثال شعراء التروبادور الذين عرفتهم القرون الوسطى ، والذين كانوا يمضون ينشدون اشعارهم وهم يعزفون على آلات موسيقية (التروبادور) ، ومعظم هؤلاء الشعراء (سكوموروني) قد وفدوا الى روسيا من بيزانطة والبلاد السلافية الجنوبية ليغنوا في بلاط الأمراء . وعلى ان الكنيسة التي تعادي كل هو

الحياة الدنيا قد طاردهم ، فقد احتفظوا أثناء احتلال التتر وفي العصور التي اعقبت ذلك ، بحظوة كبيرة في الأعياد الشعبية . وانتقل منهم الى الفلاحين والفلاحات . وفي الوقت نفسه فان هذه الأغاني ازدهرت اول الأمر في اكرانيا قد لجأت بعد ذلك الى أقصى الشمال . هربا من الاضطهاد ، وظلت مع ذلك تتغنى بوصف بلادها الاولى ، فيافي الجنوب . وأن بعض المغنين ، مثل رايبين العجوز الذي أتى به الى سان بطرسبرج في نهاية القرن التاسع عشر ، كان بعض هؤلاء المغنين يحفظون على ظهر القلب أكثر من ٥٠ ألفا من أبيات الشعر . على انه لا بد ان نذكر ان مهمة الحفظ هذه كان يسهلها استعمال «قطع متحركة» أعني ابياتا يمكن ادخالها في أية قصيدة على السواء ، وهي التي تصف البطل وهو يسرج جواده ، أو يحارب أو يقيم عيدا .

ويتألف البيت من ثلاثة مقاطع معدودة ، يفصلها عدد متغير من المقاطع غير المعدودة وينتهي بمقطعين غير محدوين . والغناء لحن موقع متكرر ، لا تصحبه آلة موسيقية . وأقدم ديوان يضم هذه الأناشيد وهو الذي يقترن باسم كيرشا دانييلوف قد ظهر عام ١٨٠٤ . واكمل فيه ديوان ربنيكوف (عام ١٨٦٨) وديوان هلفردنج (عام ١٨٧٣) .

وقد حاول بعضهم ، جريا على المؤلف ، ان يرد هذه القصائد الى اصول اسطورة تاريخية ، هندية فارسية . الا ان الدراسات الحديثة الجدية قد اكتشفت وجود تأثيرات ادبية متنوعة جدا ، أتت من بيزانطة ومن البلاد السلافية الجنوبية ، بل ومن الغرب أيضا ، ومن ذكريات العهد القديم (التوراة) والأنجيل المشكوك فيها .

وتنتظم هذه القصائد في عدة مجموعات أهمها مجموعة كيف . وفيها نرى طائفتين من الأبطال Bogatyss اما الطائفة الاولى فهي طائفة الأبطال «القدماء» (ولعلمهم يرجعون الى أصل احدث من أصل ابطال الطائفة الأخرى) منهم سفياتوجور الذي يبلغ من الثقل ان الارض لاتكاد تقوى على حمله ، والذي يهلك مع ذلك ضحية زهده بقوته ، ومنهم فولجا سياتوسلافونتش الذي

يستطيع ان يستحيل الى جميع أنواع الحيوانات ومنهم الفلاح القوي ميكولا الذي يستطيع ان يحمل عربة لا يستطيع ان يرفعها عن الأرض ثلاثون رجلا .
واما الأبطال الآخرون فهم في خدمة الأمير فلاديمير الجميل ، وفلاديمير هذا لا يشبه سبها دقيقا لا الأمير الاول المسمى بهذا الاسم اعني «معمدان» روسيا ، ولا فلاديمير مونوماك ، وهو يحكم كيف التي تحفل بالقصور والكنائس ، والتي تهددها دائما جيوش العصاة . ويعجز الأمير عن حمايتها وحده ، فيستجد الأبطال الذين كثيرا مايكفر بنعمتهم بعد ذلك . واشهر هؤلاء الأبطال ايليا موزوم ، وهو ابن فلاح ، وقد ظل مصابا بالشلل حتى الثلاثين من عمره ، الا انه اوتي بعد ان شفاه بعض الحجاج ، قوة هائلة ، فاذا هو يمزق شمل الأعداء شرمزق ، وينقذ المدن ، ويأسر «قاطع الطريق» أنه بطل شجاع ، ولكن على حكمة ، وفي غير كبر ، ولا أثرة ، نذر نفسه للدفاع عن الارض الروسية والدين المسيحي . ويحارب العصاة الى جانبه دبربينا نيكيتش الذي يقتل التنين ، ويحرر أميرة اسيرة ، ثم أليوشا ، وهو ابن أحد الكهنة وهو مزهو بنفسه ، ماهر ، يحب النساء والمال ، ولكنه شجاع شجاعة هائلة .

أما القصائد التي تروى عن نوفوجورود ، مدينة التجار والتجارة ، فانها تختلف كثيرا عن قصائد كيف وتتغنى بمفاخر سادكو التاجر الغني الذي زار ملك البحر مرتين ، وأعطاه ملك البحر كنوزا عظيمة ، أو تغنى بمفاخر المغامر فاسيلي بسلاتيفتش .

وفي عهد متأخر ، تظهر في موسكو أناشيد تتغنى بايفان المرعب الذي يحرر قازان ويحمي الشعب من البويار ، حتى لنجد قصائد عن ديمتري الكاذب ، وبطرس الأكبر ، ولكن في فن منحط .

والى جانب هذه الأناشيد التي ليست من وحي ديني ، يملك الشعب الروسي طائفة غنية من الأناشيد الدينية Doukhounye stikhi ألفها رهبان . واستوحوها من العهد القديم والعهد الجديد والاناجيل المشكوك فيها

والاساطير البيزنطية ففي «كتاب الجماعات» نسمع الملك داود يشرح للامير فلاديمير كيف تم خلق الكون . وفي قصائد أخرى نسمع قصة آدم وحواء . وقصة لعاذر المسكين والغني الخبيث ، ونسمع مآثر القديس الكسيس . وهذه الاناشيد كانت تغنيها في الغالب جوقة من الحجاج المتسولين الذين استفادوا دائما من حماية الكنيسة . وهي تغنى أكثر ما تغنى بالرحمة . . الرحمة بالضعاف والخطاة الذين باركهم يسوع المسيح .

الحكايات والأمثال - وإلى نوع الملاحم أيضا تنتسب الحكايات ، ولكنها بلغة النثر المألوفة ، لا بلغة الشعر . وقد جمعت عدة مجموعات من هذه الحكايات منذ القرن الثامن عشر ، واشهر هذه الحكايات تتصل هي الأخرى بفولكلور اوروبا وآسيا ، وتنحدر من ينابيع لا نتوقع ان تنحدر منها . فمثلا البطل الشعبي برفا ، ابن الملك ، ليس الا «بريف» آنتون وقد تروس (اصبح روسيا) بعد سفر طويل . ونجد في الحكايات الف موضوع وموضوع مما يعرف في فرنسا ، وانما مازجتها واقعية روسية ، وشعر روسي ، وفكاهة روسية .

فالأخ المضطهد ، الساذج ، اليتيم الذي يصل الى السعادة ، والساحرة باباياجا ، تبحر أحيانا على جرن عبر القارات ولكنها تؤثر ان تظل في مغارتها بالغابة ، قاعدة على عظام دجاج ، اذا جاءها زائر استدارت لتييح له الدخول .

والنتين بدلا من ان يأكل الاميرة يؤثر ان يتزوجها ، فتنجب له غلاما . والملكة تلد طفلا بعد ان تأكل سمكة من النهر ذات أجنحة ذهبية ، وتختبيء الأميرة تحت ريش البجعة ، وثمة علاقات وثيقة بين الحيوانات والبشر ، حيوانات خيالية أو حيوانات معروفة ، كالذئب والدب والحصان الأمين . والغابة والعزبة هما المكان الذي تجري فيه حوادث الحكاية ، ويملؤه الجن . والشعب الروسي غني كذلك بالاقوال والأمثال ، وفيها ترى ذكريات تاريخية كقولهم : «ضيف لم تدعه اسوأ من تترى» وترى فيها ملامح عاداتهم

القروية كقولهم : « الربيع جميل ، ولكنه جائع » وترى فيها ملاحظات بارعة ذكية ، وأفكارا دينية . وهناك عبارات كثيرة تجمع بين السحر والدين يقصدون بها الى شفاء البشر والدواب من أمراضها ، والى حماية المحاصيل والبيوت والمسافرين .

الشعر الغنائي - لقد استطاعت بعض الجوقات المشهورة ان تذوق جمهور الغرب ذلك الجمال الرائع الذي تنعم به الأغاني الروسية . وبعض هذه الاغاني يعود الى اقدم العهود وبعضها مستمد من الادب المكتوب ، وقد شرفه الشعب بان تبناه ، فصار يجري على حناجره . ومعظم هذه الاغاني لا قافية له ، يتألف من مقاطع معدودة يفصل بينها عدد غير مطرد من المقاطع .

وللشعب الروسي اغان لكل المناسبات . فالرقص مصحوب دائما بغناء . ولكل عيد من أعياد السنة اغانيه ، وللربيع اغان تسير بها الجموع من باب الى باب ولعيد الميلاد اغان تحمي طقوسه التقليدية ، وليس لكلام هذه الاغاني من كبير قيمة في بعض الاحيان ، انها تذكر بطيران عصفور أو نحيب فرس في السهول ، وتذكر بنباض شجرة السندر وعناقيد شجرة الزيزفون ، وسبابخ الثلج وهي تدور .

وانما في الحب حزيمة دائما ، واحزن منها اغاني الفتاة سينتزعها الزواج من بيت اهلها ، فهي تضرع وصديقاتها الى أبيها ان لا يسلمها الى اسرة غريبة ، وهي تضرع الى أخيها ان يحميها ويدافع عنها . والاعراس في القرى تتبع طقوسا قديمة ومازالت في بعض الاحيان تمثل الخطف البدائي وتحفظ بتقاليد الزواج عند البوير في القرون الوسطى . وان هذه الطقوس المصحوبة بالاغاني هي مشاهد درامية حقيقية ولكنهم يخلعون عليها قيمة تكاد تكون سحرية . وحزيمة كذلك اغاني الجنود يودعون ، في روسيا القديمة ، قريتهم وبنات قلوبهم وداعا لا لقاء بعده وثمة كذلك النذب على الأموات وهو لم يتغير منذ قرون ، نذب الام ولدها ، ونذب الزوجة زوجها اذ تناديه : «ياصقري» و «يانوري» وتظل بعده معذبة شقية .

ان الغنى الموسيقى الذي تتمتع به هذه الاناشيد ، وما تجري عليه من ايقاع فرح مرح أو حزين كثيب والاصوات الروسية الجميلة التي تغنيها ، كل ذلك يجعل هذه الثروة الغنائية ذات قيمة عظيمة لا تضاهى .

المسرح الشعبي - لاشك ان الشعراء المنشدين « Skomorokh » قد مثلوا قطعاً هزلية (مساخر) ولعلهم ايضا مثلوا دراسات قصيرة ، ولكننا لا نعلم شيئاً عن هذه الامور التي حاربتها الكنيسة حرباً لا هوادة فيها وقد اقتبست بعد ذلك بعض الدرامات الدينية التي كانت تمثل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وقربت من الذوق الشعبي ، اما « الارجوز » فقد اتى من المانيا ، والشخصية الرئيسية فيه هي شخصية يتروشكا الخبيث .

الأدب المكتوب قبل بطرس الأكبر

قبل الغزو التركي : لقد كانت الديانة المسيحية مركز الحضارة في روسيا ، كما كانت مركز الحضارة في الغرب وكان على الراهب وحده ، خلال قرون ، ان يغذي الشعلة الصغيرة المترججة من الثقافة .

ولقد اخذت روسيا ديانتها من بيزانطة ، وكان لهذا نتائج لا يحصيها عدّ ، ولقد كان في امكان روسيا ان تتأثر بالثقافة اليونانية ، الا ان حذر رجال الدين قد حدّ هذا التأثير بحدود تعاليم آباء الكنيسة . ولقد حرمت روسيا من أي اتصال بالكلاسيكية اللاتينية ، وحرمت الى ذلك من الحركات التكرية التي شهدتها القرون الوسطى وعصر النهضة وان لغة الكنيسة التي أتى اليها بها الرسل الاول ، اعني اللهجة البلغارية التي ترجم اليها سيريل وميتود النصوص المقدسة ، والتي يطلق عليها اسم Slavon قد امتازت بميزة كبرى ، وهي ان الناس قد فهموها في سهولة ويسر ، الا أنها في مقابل ذلك قد حرمت رجال الدين من معرفة الحضارة القديمة التي كان يمكن أن يدفعهم اليها استعمالهم لليونانية أو اللاتينية . فلما جاء الغزو التركي أكمل انعزال روسيا .

فعاثت بعد ذلك خلال قرون ، على زخيرة ادبية كانت قد وصلت اليها من بيزانطة قبل عام ١٢٤٠ ، خاصة بواسطة الامبراطورية البلغارية ، ابان ازدهارها في القرن العاشر . فكانت تملك تراثا ادبيا واسعا الأناجيل ،

والأناجيل المشكوك فيها ، وخطب القديس جان كريزوستوم ، والقديس بازيل ، وسير القديسين يضاف الى ذلك أخبار بيزانطة ، وبعض ذكريات من حرب طروادة ، والاسكندر ، وأباطرة الرومان كل ذلك قد نقل في الأديرة بلغة تحورت شيئا فشيئا حتى اقتربت من الروسية وظلت لغة الادب الى القرن الثامن عشر .

واقدم مخطوط روسي (وهو مخطوط مزخرف زخرفة غنية) هو «انجيل استرومير» وقد أسماه كذلك رجل من رجال الدولة ، نقل له الشماس جريجوار مقتطفات من الأناجيل لايام الآحاد ، واعياد السنة وهناك مجموعات «Isborniki» اخرى جمعت بعد ذلك ببضع سنين للامير شعيا توسلاف ، وهي تحوي صفحات لأباء الكنيسة ، ومن حياة القديسين ، وتاريخا لأباطرة الرومان ، وحتى بعض مبادئ البلاغة .

واننا لنرى المنافسة الروسية تظهر منذ ذلك الحين فنرى بعض الوعاظ يكتبون خطيا على غرار القديس جان كريزوستوم ، ونرى ما هو أهم من ذلك بالنسبة الينا ، نرى مؤرخين يكتبون تاريخ بلادهم على غرار المؤرخين البيزنطيين ، وحوالي عام ١١١٥ ، كتبت في دير بكيف ، اخبار الأزمنة السالفة (او «تاريخ نسطور» كما يسمونه) ، وقد نسخت هذه الاخبار كثيرا ، ودخلت عليها اضافات كثيرة تكملها ، واقدم مخطوط غملكه منها هو مخطوط الراهب لورانت سوزوال ، وهو يرجع الى عام ١٣٧٧ ، وان المؤرخ الذي كتب هذه الاخبار يرجع الى عهد الطوفان ، ليقرر تسلسل السلافين ، احفادجافت ، ويذكر الاسطورة التي اتت الى روسيا بالرسول آندره ، الا ان الشيء الهام في تاريخه يبدأ حين يأخذ يتحدث عن عهد قريب منه كل القرب ، هو عهد بناء مدينة كييف ، وانتقام اولجا ، وموت اولج ، وهداية فلاديمير الذي عمد شعبه في نهر الدينير بعد ان دحرج فيه تمثال الاله بيروان . وهذه الحوادث التي تبرز فيها الاسطورة بالواقع يقصها المؤلف قصا يفيض بالحياة ، والوضوح ، والالوان ، كما انك تلمس فيه روح الاعتزاز بروسيته ومسيحيته .

ومن الكتابات الرائعة كذلك ، بما تطلعنا عليه من اخلاق ذلك الزمان ، ومن قوة شخصية صاحبها «وصايا» فلاديمير مونوماك (١٠٥٤ - ١١٢٥) لابنائه وفيها تقرأ مبادئ دينية وأخلاقية وترى نصائح حصينة عن واجبات الأمير ، مزينة بذكريات شخصية ، ويلح مونوماك خاصة على واجب الضيافة واکرام الغرباء ، وعلى مزايا التعليم .

وكان الروس ، في ذلك العصر ، مازالوا على صلة بالبلاد الاجنبية ، وكان الرهبان لا يترددون عن الشروع بأسفار طويلة ، وكان المتأدبون منهم يقصون اخبار هذه الاسفار .

ففي عام ١١١٥ يسافر الراهب الى القدس الشريف ، فيصف الاماكن المقدسة وصفا دقيقا ولاسيا كنيسة قبر سيدنا يسوع المسيح ، ويحضر في هذه الكنيسة قداس ليلة عيد الفصح ، ويرى كيف تهبط من السماء نار تشعل مصابيح الارثوذكسيين الذين يجب على اللاتين ان يطلبوا منهم ان يتصدقوا عليهم بالشعلة وتلاحظ ان هذا الراهب لا يعتز بانه ينتمي الى الكنيسة الشرقية فحسب ، بل يعتز كذلك بانه روسي ولا ينسى في اي هيكل من الهياكل ان يصلي لوطنه وامراته .

وقد وصف المطران انطوان ، مطران نفجسورود ، الأبنية السدينية في القسطنطينية وما حفظ فيها من آثار ولأوصافه هذه قيمة ثمينة جدا ، لاسيما وان رحلته عام ١٢٠٠ سبقت بقليل دخول الصليبيين الى القسطنطينية واستباحتهم اياها نهبا وتقتيلا .

وهناك قصة شهيرة جدا بعنوان «معركة ايجور» ، وهي تروى قصة حمله تعيسة قام بها اثنان من ابناء عم الأمير سفياترسلاف ، وهما ايجور وغسيغولود ، ضد البولغستين . وتنتهي الحملة بانكسار الاميرين انكسارا دمويا ، ويقعان في الأسر ويستولي الخصوم على الأرض الروسية ويعبثون فيها نهبا ويتوصل ايجور مع ذلك الى الافلات من الأسر . وانك لترى في هذا الأثر من كل شيء كتب بنثر شعري يبلغ قمة الجمال في بعض الأحيان ، ويغمض في

احيان أخرى . ترى معارك ، ومناظر طبيعية ، وشيئا من الاساطير السلافية ، والافكار المسيحية ، والآراء السياسية التي تنبض حكمة ووطنية ، وترى كذلك مقطعا غنائيا جميلا ، وهو نوح امرأة ايجور التي وقفت على سور بويتل ، واخذت تتهم العناصر الشريرة بانها سببت الخسارة للروس . والمؤسف ان نسبة هذه القصة الى مؤلفها ليست محققة . والمخطوط الوحيد الذي عرف عنها ونشره الكونت موسين بوشكين عام ١٨٠٠ قد احترق في حريق موسكو ، ويستحيل ، والحالة هذه التحقق من صحة نسبتها . واغلب الظن انها متحولة وان المصدر الرئيسي الذي عرفت منه واستوحته قصيدة تعود الى القرن الخامس عشر ، تروى معركة كوكيوفو ، اعني القصيدة المعروفة بعنوان « Zabonchtchi » وقد اعتاد النقاد الروس ان يروا في هذه القصيدة تقليدا لقصة معركة ايجور ، وعندني انه عكس ذلك أرجح .

ثم يأتي الطوفان الاعظم الذي يوقف تطور روسيا ايقافا مفاجعا ، اعني الغزو التتري الذي تعقبه عبودية تدوم قرنين وتحطم روح البلاد ، رغم ان الغزاة لم يحاولوا ان يفرضوا ادارتهم ، ولا لغتهم ولا دينهم .

ولم يكن هذا العهد ، من الناحية الفكرية ، فترة جمود فحسب ، بل كان مرحلة تراجع وتقهقر . ان البوير في القرن الخامس عشر أميون عن بكرة أبيهم تقريبا ، حتى ان كثيرا من الكهنة يحفظون صلواتهم على ظهر القلب لجهلهم بالقراءة .

بعد التحرير - لقد تغير وجه روسيا تغيرا كاملا ، حين اعلن ايفان الثالث استقلال روسيا ، ورفض دفع الجزية للتتر الذين اصبحوا اضعف من ان يقتضوها ولم يبق ثمة أمارات مستقلة ، «وجمع» امراء موسكو الارض الروسية تحت سلطنتهم واصبحت موسكو الحرة تطمع في ان تحل محل القسطنطينية التي اصبحت مستعبدة كمركز للمسيحية الحقيقية ، وقد ساعدها على ذلك لاجئون وفدوا اليها من القسطنطينية والبلاد السلافية الجنوبية ، وشهدت موجة جديدة من الحضارة ترد اليها من نفس النبع الذي وردت منه الموجة

الاولى ، مع وافد ضئيل من الغرب فمن ايطاليا أتى معماريو الكرمليين ، وأتى منها كذلك ماكسيم المسمى بالاغريقي (ألباني الأصل) ، وهو تلميذ سافونارول ، وعاد فاسيلي الثالث ليراجع الترجمات الروسية للنصوص المقدسة ، وكانت تلك مهمة خطيرة ، أثارت احتجاجات رجال الدين وكلفت ماكسيم ان ينفى الى دير بعيد ، ولكن بعد أن ألقى بذور أفكار جديدة . حتى ان الستوكلاف نفسه ، وهو خلاصة في مائة بند . للقرارات اتخذها المجمع الذي دعا اليه ايفان الرابع عام ١٥٥١ والذي ضم مع ذلك خصوصا من كل نوع ، قد اعترف بضرورة توسيع تعليم رجال الدين . وخشية ان يستغل

تشوه الكتب المقدسة على أيدي الناسخين الجهلة ، أسست في موسكو عام ١٥٥٣ أول مطبعة ، وخصصت للكنيسة . وان كثيرا من بنود الستوكلاف تدلنا على ماكان شائعا في ذلك العصر من جهل وتأخر ، وخرافات وأوهام . وما هو أهم من ذلك لدراسة اخلاق ذلك العصر الكتاب المعروف بعنوان « Domostro » الذي كان يسند الى الراهب سيلفستر ، مستشار ايفان الرابع الشاب (ويظهر ان «وصايا أب الى ابنه» المضافة الى النص هي وحدها بقلم سلفستر) ، ان هذا الكتاب هو عمدة من اراد ان يكون رب عائلة كاملا ، يعلمه كيف يقوم بواجباته الدينية ، وكيف يسوس زوجته واولاده ، وخدمه ، وكيف يقتصد في النفقات مع قيامه بواجبات الضيافة ، وكيف يهيئ في بيته الثياب ، والبيرة ، ومثونة الشتاء ، لقد كانت الأسرة الغنية في ذلك الحين

تعيش حياة اقتصادية محدودة بغلال الارض وعمل العبيد ، وكان رب العائلة السيد المطلق في بيته بعد الله ، وكانت سلطته تعتمد على السوط ، وكان في وسعه بل من واجبه فيما ينصح به هذا الكتاب ، ان يستعمل السوط في سياسة امرأته ، شريطة ان لا يكون ذلك على ملأ من الناس ، وكان من واجبه ان يعمد الى السوط في تأديب اولاده وخدمه فما ينقذ الارواح الاتعذيب الابدان . .

وثمة كتاب آخر ولد في هذا العصر نفسه ، وظل يحتل خلال قرون طويلة

مكانا كبيرا في الحياة الدينية الروسية ، اعني الكتاب المعروف بعنوان « Tchettii- Minei » وهو مجلد ضخيم يضم نخبا كثيرة جمعها المطران ماكير عن حياة الأنبياء والرسل والقديسين اليونان والروس ، وكان يضم اليها آثارهم اذا سنحت الفرصة ، واضعا اياها في ايام اعيادهم ، وقد ضم الى ذلك كله مؤلفات دينية أخرى ، بل و اضاف بعض قصص الحج . ان هذا الكتاب «مجموعة» كل الادب الديني المعروف في روسيا .

وابرز كاتب في عهد ايفان المرعب ، هو القيصر نفسه مافي ذلك شك . وتظهر شخصيته الحادة المعتدة ظهورا قويا في رسالة كتبها الى راهب دير القديس سيرسيل وفي رسالتين كتبهما الى الامير كورسكي الذي هرب الى بولونيا بعد ان عمل في خدمته ، ثم أخذ من هناك يكتب اليه رسائل حادة يلومه فيها على جرائمه ، فأخذ ايفان ، بدوره يكيل له السخر والشتم ، ويستشهد بآيات من التوراة على ان سلطته مستمدة من الله ، وان من حقه ان يتصرف برعاياه ان شاء أحياءهم وان شاء اماتهم ثم يشعر بحاجة قوية الى تبرئة نفسه ، فتراه يعود الى مافيه ، يتذكر مالقي في طفولته من البوير من حرمان وعذاب وعار ، ومالقي من خيانات كان لابد له من ان يعاقب عليها اصحابها . انك حين تقرأ هاتين الرسالتين تحس انك امام وثيقة سيكولوجية من الطراز الاول ، وان الامير كوربسكي ، في رسائله وفي كتابه «تاريخ امير موسكو الأكبر (لقد كان يأبى ان يدعوه بالقيصر) يدرس ايضا تطور شخصية ايفان الرابع وتطور طبعه منذ البشائر اللامعة التي بدأ بها عهده الى ان جرت انهر الدماء في السنين الأخيرة . وانك حين تقرأ رسائل هذا الرجل المثقف بالنسبة الى عمره ، تلميذ ماكسيم الافريقي ، تحس انه يقدر حضارة البلد الذي لجأ اليه ، ولكنه يحتفظ مع ذلك بحنين قوي الى وطنه الحقيقي .

وبعد ذلك بقرن تقريبا ، ولكنه قرن مشحون بالاضطرابات ، اضطرابات الحروب الأهلية والخارجية قرن مشحون بالبؤس والشقاء ، قرن لم تستطع خلاله روسيا ان تسير خطوة واحدة في طريق التقدم ، ظهر كاتب آخر كتب من

المنفى أيضا . . هو كوتوشيكين ، الذي كان مستشار الشؤون الخارجية ، ثم اقام حينا في السويد .

ومن هناك رسم لنا ، في كتاب عن «روسيا في عهد الكسيس ميخائيلوفتش» لوحة قائمة عن بلاط موسكو وصور في هذا البلاط اولئك البوير الجهلة المتغطرسين ، وصور ماكان يسود البلاط من اخلاق متأخرة ومشينة . كما ان كريجانتش القرباطي الذي جاء به الى روسيا حلم توحيد الكنائس والتقريب بين الشعوب السلافية ، والذي ارسل الى سيبيريا يفكر في اوهامه الضائعة واحلامه المفقودة . . . قد كتب أيضا يشكو زمانه باللاتينية أحيانا ، وبمزيج من الروسية والقرواطية أحيانا أخرى يشكو جهل الموسكوفيين ، وغلاظتهم ، ويعلن انه مامن شيء يمكن ان يشفي هذا الداء الا السلطة المطلقة للقيصر .

والحق ان الكسيس ميخائيلوفتش ثاني اسرة رومانوف . قد بذل مجهودا لانتشال شعبه من التأخر . وقد استأنف في مجال الدين ، العمل الذي تصوره مكسيم الاغريقي ، وبتأثير البطريرك نيكون ذي النزعة الاستبدادية صححت الكتب المقدسة . كما عادت بعض الطقوس ، كذكر اسم المسيح والتصليب ، وغير ذلك الى اشكالها الاولى . الا ان الشعب الذي كان يخشى كل تبديل ، ويشتهه في اي تأثير اجنبي ، رأى في ذلك كله عملا شيطانيا . فتحطمت وحدة الكنيسة الروسية واضطهدت اشد العناصر تمسكا بمسيحياتها ، وتعرضت للذبح والهرب الى الغابات البعيدة وللانتحار الجماعي في بعض الأحيان وفي رأس أولى الضحايا الكاهن آفاكوم الذي حرق حيا عام ١٦٨٢ . وهو في سيرته التي كتبها عن نفسه يعلن قناعاته القوية ، واستيائه من اصلاحات نيكون . ويروي قصة سفره الرهيب خلال سيبيريا ، مع امرأته واطفاله ، ويصف المنفى ، وضروب العذاب التي لقيها بسبب ايمانه الراسخ بالتقاليد . ان «سيرة آفاكوم» المكتوبة بلغة شعبية بليغة عنيفة ، هي اشد آثار الادب الروسي القديم تأثيرا في النفس ،

ولكن الماضي كان لا بد له ان يخضع لضغط العصور الجديدة . فاستطاعت

بعض تأثيرات الغرب ترسخ من خلال جدار الشك وسوء الظن الذي كان يفصل روسيا عن الغرب . وهاهي موسكو تتلمذ على كييف ، موطن الانتقال كييف التي ارادت ان تدافع عن الارثوذكسية ضد الكاثوليكية البولونية ، فتسلحت بعين الاسلحة العقلية التي كان يتزود بها خصومها . فمن كييف انما يستدعي نيكون بعض الرهبان الذين يعرفون اليونانية لمراجعة الكتب المقدسة ، وتقليدا لأكاديمية كييف الاكليركية ، هذه الأكاديمية التي انشأها بطرس موجيلا عام ١٥٨٩ ، إنماتأسست في موسكو عام ١٢٨٣ مدرسة لم تلبث ان سميت باسم الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية . ورغم ان نظرة الروس الى بولونيا والديانة الكاثوليكية كانت نظرة الحذر والريبة ، فان هاتين الاكاديميتين اخذتا تقلدان الكليات اليسوعية البولونية وتنافسناها ، وتضعان الادب مثلها ، موضع تكريم واحترام ، حتى ان سيميون البولوتسكي الذي يعلم في موسكو ويربي ابناء القيصر ، لم يكتب كتابا دينية فحسب ، بل نظم عددا كبيرا من القصائد الدينية والتعليمية ، على اوزان شبيهة بالاوزان البولونية (اي قائمة على اساس المقاطع) ومختلفة كل الاختلاف عن الشعر الشعبي الروسي القائم على اساس المد ولما كانت هاتان الأكاديميتان تقمان ، على غرار اليسوعيين ، حفلات مسرحية تمثل فيها بعض الموضوعات الدينية ، فقد ألف سيميون البولوتسكي درامات عن «الابن المتلاف» وعن الشبان الثلاثة الذين رماهم نابختصر في الأتون .

ويشهد القيصر احدى هذه التمثيليات ، ثم مايلبث ان تغريه مشاهد اخرى .

وقد دخلت الثقافة الغربية عن طرق اخرى . لقد كان التجار الأجانب ، والالمان منهم بوجه خاص يزدادون في موسكو سنة بعد سنة ، وكان لهم في موسكو منذ عهد ايفان المرعب ، حي خاص بهم هو في سلوبودا . فكانوا يقيمون في حيههم هذا بعض الحفلات على طريقة بلادهم ، يعزفون بعض الموسيقى ، ويمثلون بعض القطع المسرحية ، وفي عام ١٦٧٣ أمر القيصر

الكسيس ، بمناسبة ميلاد ابنه بطرس ، امر القسيس ج . ج جريجوار ان تمثل في البلاط قطعة مستمدة من كتاب «استر» وان ينشأن لهذا الغرض بناء خاص وكان ذلك أول مسرح روسي ، وقد هيا جرجوري تمثيل مسرحيات أخرى في هذا المسرح ، مسرحيات عن آدم وحواء ، وعن جوديث (ولم تحفظ من هذه المسرحيات الا الأخيرة) .

والى عودة الشعر والمسرح اضيفت بعد ذلك مودة الرواية .
وكما تأخر الشعر والمسرح في موسكو قرنين عن الغرب ، فكذلك كان الناس يقرأون في موسكو روايات الفروسية والمغامرات التي كانت قد أقل نجمها في البلدان الأخرى وكان القراء يتداولون هذه الروايات مخطوطة اذ لم تؤسس في روسيا مطبعة مستقلة عن الكنيسة الا بعد بطرس الأكبر ، وكان هذا الذي يتداوله الناس اقتباسا روايات اجنبية ، اقتباسا يحرف الأصل ليلائم بينه وبين ذوق الجمهور الذي يختلف كل الاختلاف عن الجمهور الذي شهد ولادة الأصل . وقد لقيت هذه الروايات نجاحا عظيما . ومالبث ان حضت المقلدين على تقليدها واجمل الروايات الروسية الاولى وأملؤها بالفكاهة قصة «فرول سكابييف» وهو مغامر لا يعرف التردد ولا الوسواس يصل الى الحصول على الحب والثروة واحترام الجميع .

القرن الثامن عشر

وهكذا كانت روسيا تنجح إلى «التأرب» (أي تصبح أوروبية) شيئاً بعد شيء ولكن هذا السير كاد يكون بطيئاً لولا تلك الثورة التي فرضتها عبقرية أحد القيصرية لولا هذه القبضة القوية التي فتحت لروسيا نافذة على أوروبا ، وحطمت التقاليد والأحكام السابقة وضرب الحذر والشك وسوء الظن .

عهد بطرس الأول - إن ما كان يهم بطرس الأكبر هو أن يغير تكوين الدولة وأن تتدارك البلاد ما فاتها من تقدم تكنيكي سبقتها إليه الأمم الأخرى بقرون ، وأن يجعل روسيا قوية من الناحية العسكرية والبحرية والتجارية .

وكان لا يهتم بالأدب كثيراً . إلا إنه مهد له السبل بتبسيط الأبجدية ، وتأسيس المطابع التي أصبحت تخرج كتباً تكنيكية بدلاً من الكتب الدينية . واغتنت اللغة بمفردات جديدة استهدت من الهولندية أو الألمانية . وأسس أكاديمية العلوم وأنشأ مكتبة عامة . ولم يكن الأدب في أول الأمر إلا سلاحاً للجدل .

فترى يتوفن بروكد بوفتش ، مطران نوفجورود ، وهو أحد أعوان القيصر المخلصين له ينظم أشعاراً كسيميون البولوتسكي ويؤلف رواية دينية بعنوان «فيديمير ، ويدافع في خطبه خاصة ، دفاعاً قوياً غنياً عن اصلاحيات القيصر ، ويدل في كل ذلك على إنه واسع العقل رحب الصدر من الناحية الدينية ولعله

قد تأثر اذن ببعض آراء البرونستانية . وفي المعسكر المقابل نسمع صوت ستيفان بافورسكي ، مطران رياران ، ينهض لمحاربة هذه التأثيرات البرونستانية ، ويؤلف كتاب «حجر الأيمان» وهناك تأتشتشيف (١٦٨٦ - ١٧٥٠) صديق برو وبوفتش ، وقد شغل مناصب عالية ، وقام برحلات كثيرة إلى الخارج أطلع فيها على الفلسفة والاقتصاد السياسي ، وهو يوصي ابنه بدراسة هذه الموضوعات في «وصية» كتبها له ، وإنك لتحس في هذه الوصية نغمات من روح القرن الثامن عشر . وقد ألف كتاباً عن «تاريخ روسيا» في خمسة أجزاء ، وأراد عمداً أن لا يكمله ، من قبيل التبصر بالعواقب كما يقول ، بل توقف عند «عهد الاضطرابات» والكتاب قيم رائع ، يمتاز بوضوحه ، ومنطقه ، وحسن استعانة بالمصادر ، وقد فرغ صاحبه من تأليفه عام ١٧٣٩ . ولكنه لم يطبع إلا بعد موت المؤلف بمدة طويلة .

ومن بيئة اجتماعية تختلف عن تلك كل الاختلافات يأتي هذا الكتاب الطريف «من الفقر إلى الغنى» يوجهه إلى القيصر عام ١٧٢٤ فلاح عصامي علّم نفسه بنفسه ووصل إلى الغنى ، وهو من أشد المناصرين حماسة للتعليم والاصلاح ، وذلك هو ايفان موزوشكوف . ويجب أن نذكر ان حماسه هذه قد كلفته بعد موت بطرس ان اعتقل وسجن في قلعة مات فيها ، ويمكن أن نعتبره فلة لم تتكرر بعد ذلك بمدة طويلة ، إذ ظلت الثقافة وقفاً على الطبقة الارستقراطية وحدها تقريبا . وهذه الطبقة ، العاجزة في جملتها عن اتباع الافكار العظيمة التي أتى بها بطرس الاول والمعادية لاصلاحاته التي تهددها مباشرة لم تلبث مع ذلك ان تذوقت الأخلاق والمتع الآتية من الغرب ، وأصبحت لا تفكر في حرمان نفسها منها ، وسرعان ما أصبحت معرفة لغة أجنبية شيئاً محبباً جميلاً . وكانت اللغة الألمانية في عهدبطرس الأكبر لغة حديث في بلاط القيصر ، ثم حلت محلها الفرنسية في بلاط من اعقبوه من قياصرة وفي عهد اليزابت تم النصر لتأثير الثقافة الفرنسية .

عهد اليزابت - الآن تشهد روسيا «نهضة حقيقية» نهضة تشبه في كثير من

ملاعها النهضة التي عرفها الغرب قبل ذلك بمدة طويلة . وقد أدى تغير العادات والأخلاق إلى تغير في الأدب الذي ظل إلى ذلك الحين متجها إلى حياة الآخرة ، فأصبح الآن يتجه إلى حياة الأرض . وبهذا تغيرت اللغة نفسها ، وابتعدت عن السلافون وشحنت بمفردات أجنبية . وكان عليها أن تغطي وتصفو في الوقت نفسه ، أن عليها أن توجد ثراً وأن توجد أوزاناً شعرية . فكانت هذه المسائل تحتل المكان الأول من الاهتمام ، لأنها تحتل المكان الأول بين الضرورات الملحة السريعة . لذلك رأينا الكتاب جميعهم يبدأون بوضع نظريات . ولقد كانوا يشعرون بأنهم يساهمون ، في ميدانهم ، في العمل الذي شرع به بطرس الأكبر وأنا لنلاحظ في عصر التقليد هذا ، كبرياء قومية ورغبة جامحة في مساواة البلاد الأجنبية والتفوق عليها .

وتتجلى هذه العواطف فيما كتبه الأمير أنتيوش كانتشير (١٧٠٩ - ١٧٤٤) الذي لم يكن مع ذلك روسيا إلا بالتبني . إنه ابن أمير من مولدافيا ، وقد ناصر بطرس الأول ، وسافر بحكم منصبه الدبلوماسي إلى لندن وهو في ريعان شبابه ، ثم عين سفيراً في باريس ، حيث مات وكان لا يزال شاباً ولئن أقبل على دراسة علوم الغرب وآدابه اقبالاً منها ، فانما لكي يخدم البلاد التي تبنته . وقد ألف ديواناً بعنوان «الأهاجي» ظهرت ترجمته الفرنسية أولاً عام ١٧٤٨ ، ولم يظهر بالروسية إلا عام ١٧٦٢ وفي هذا الديوان ، رغم إنه يذكر كيهوراس وتيوفراست وبوالد ولابروير تراه يصف العادات الروسية وصفاً قوياً ، ويرسم لها لوحات عنيفة ، تحدثك ، عن المساواة الروسية من جهل وخرافات وكبرياء بويرية حمقاء يريد اصلاحها . ويتألف البيت الشعري في قصائده من ثلاثة عشر مقطعاً ، وهو بيت ثقيل ، رغم ان مقاطع المد تنوزع فيه على اطراد ، كما أن أسلوبه الشعري أدنى إلى القدم من برقياته الدبلوماسية الشائقة جداً .

وانما يعود الفضل في الاصلاح العميق الذي تناول النظم الروسي الى اثنين

هما تريدياكوفسكي ولومونوزوف ، والى الأول بوجه خاص ، ففضلهما أصبح بيت الشعر الروسي مقطعا ، قائما على تناوب مقاطع ممدودة ومقاطع ليست بذات مدّ . اما تريدياكوفسكي (١٧٠٣ - ١٧٦٩) فهو ابن كاهن من استرخان وقد هرب من الأكاديمية الاكليريكية بموسكو الى هولاندة وثم الى فرنسا ، ولما عاد أصبح استاذاً في اكاديمية العلوم وكان انتاجه الادبي الغزير ، حتى اثناء حياته ، موضع هزء وسخرية ولاسيا ترجمته الثقيلة لكتاب (تلماك)

في أبيات ثمانية وكتابات النظرية أعلى من ذلك بكثير وفيها يعرض الكلاسيكية الفرنسية ويعرض نظرية جديدة في النظم . فمنذ عام ١٧٣٥ اصدر دراسة بعنوان «طريقة جديدة وسريعة لنظم اشعار روسية» ، يناهض فيها النظم القائم على اساس المقاطع بالنظم القائم على اساس المدّ وفي عام ١٧٥٢ اعاد النظر في نظريته واغناها ، وذلك في دراسة بعنوان «طريقة لنظم اشعار روسية» وكان اثناء ذلك قد استفاد من امثلة منافسة لومونوزوف الذي كان هو الآخر صاحب نظريات في اللغة والنظم ، ولكنه كان يتمتع بموهبة شعرية حقا .

ان مواهب خارقة قد اجتمعت لشخصية ميشيل لومونوزوف (١٧١١ - ١٧٦٥) القوية ، وهو احسن من يمثل بسعة آفاقه هذه «النهضة الروسية» ولومونوزوف ابن فلاح صياد من جهات ارخانجلس ، شبّ في أحضان الطبيعة المتوحشة في الشمال وتعلم القراءة على ايدي بعض المؤمنين العجائز الذين لجؤوا الى تلك البقاع . وكان صاحبنا من شدة طمعه في التعلم ان هرب من بيت ابيه واستطاع الالتحاق بالاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية ، ثم استطاع ان يوفد الى ماربورج حيث درس على كريتيان وولف ثم الى فريبرج حيث برهن على قدرة عجيبة على العمل ، ثم عين استاذاً في اكاديمية العلوم ، وكان هنالك على نزاع متصل مع زملائه الاجانب ، وكان يشتغل في الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم المعادن في آن واحد ، وتوصل في هذه الميادين كلها الى اكتشافات هامة . وقد ألف أول كتاب من كتب النحو الروسية

نشرة عام ١٧٥٥ ، وهو في هذا الكتاب وفي كتاب آخر بعنوان «فائدة الكتب الكنيسية» يقرر ما بين السلافون والروسية من فرق في الاصل ، كما يعرض نظرية شائعة في اللغة الادبية وهو يفرق بين ثلاثة اساليب الاسلوب الراقبي الذي تمثل فيه السلافون منزلة الصدارة ، والاسلوب المتوسط على تحاشيه الاسفاف ، يقترب من لغة المخاطبة ، ثم الأسلوب الدافئ الذي يقبل استعمال تعبيرات شعبية . وهذه الاساليب الثلاثة يناسب كل منها نوعا من الأنواع الادبية . ان هذه النظرية على شدة تحجرها تستند الى معرفة غريزية عميقة باللغة وما من شاعر الا طبقها على غير وعي منه .

وقد نظم لومونوزوف في جميع الانواع الشعرية ولكنه تفوق تفوقا خاصا في فن الأناشيد ذات الادوار . ولقد وضع نشاطه الشعري ونشاطه العلمي معاً في خدمة الدولة فكان الشاعر الرسمي لاليزابت . وفي اناشيده الدينية يمتزج الايمان العميق بحب للطبيعة التي كان يدرسها كعالم ، ويتأملها كشاعر فاذا رأى الشمس تشرق ، او اذا لفحت وجهه ريح الشمال عند الفجر ، اخذ يتأمل في عظمة الله .

ولكن طريقة لومونوزوف في الشعر ، قد شهدت حتى أثناء حياته ، شيئا من التمرد عليها ، لما فيها من اسراف في (الجلال والفخامة) . ان اليزابيت لاتشبه الا قليلا هذه الصورة التي رسمها لها شاعرنا كانها منيرفا ، لذلك كان رجال الحاشية يفضلون على اناشيد لومونوزوف ، شعر سوماروخوف لانه اقرب الى الخفة وروح العصر . وسوماروخوف هذا (١٧١٨ - ١٧٧٧) ارستقراطي نشأ في بيت نبيل ، ولكنه حبس حياته كلها على الادب . وقد استعمل حتى في

الاناشيد « Oda » والمآسي لغة الصالونات الهنية اللينة ، واحتدمت بينه وبين لومونوزوف مجادلات عنيفة ، واستطاع ان يجمع انتصارا من الجيل الجديد يؤلفون من حوله مدرسة في الشعر جديدة . ولقد كتب في جميع الميادين ونجح في الاناشيد الرسمية ، ولكنه نجح اكثر من ذلك في القصائد الخفيفة الاناكرونية (نسبة الى الشاعر اناكرييون) ، واعجب به معاصروه كمؤلف

درامي بوجه خاص ، وكان هو نفسه لا يتردد في ان يضع نفسه في صف راسين ومولير في آن واحد .

وهذا هو العصر الذي نشأ فيه المسرح الشعبي . اذ كان تمثيل المسرحيات حتى ذلك الحين مقصورا على البلاد ، تقوم به في الغالب فرق اجنبية ، وفي المدارس ، وخاصة مدارس ابناء الامراء ، وقد كون فولكوف وهو ابن تاجر من ياروسلاف فرقة في مدينته استدعتها اليزابت الى بطرسبرج ، كما أسست عام ١٧٥٦ مسرحا عهدت بادارته الى سوماروخوف ، فكان سوماروخوف يغذيه بمؤلفاته . وكان يستعمل في مآسيه الكثيرة كل طرائق الكلاسيكية الفرنسية ، فيحيل التاريخيين الحفاة («خوريف» ١٧٤٧) والامراء الكبار الأول (مستسلاف) أبطالاً رفاق القلب على طريقة راسين وجميع هذه المسرحيات يكاد تستمد موضوعاتها من التاريخ الروسي وحده ، ومع ذلك فقد دخل شكسبير الى المسرح الروسي بـ «هملت» لايمت بكبير صلة إلى «هملت» الأصلي . وكانت مسرحيات سوماروخوف الهزلية تأخذ عن مولير ، وتسرق موافقه ، بل تأخذ حتى الأسماء التقليدية للكوميدي فرانسيز ، ولكنها تسخر أحيانا من المساوىء الروسية ، كسوء ائتمان الموظفين والخرافات ، وشدة الإعجاب بالفرنسيين .

عهد كاترين الثانية: في عهد كاترين الثانية ظلت روسيا واقفة عند المدرسة الكلاسيكية الفرنسية . وعلى ذلك الحين تعنى بالأدب الأخرى ، متبعة في هذا أيضاً خطى فرنسا فمن ألمانيا وسويسرا أتت إليها القصائد الغزلية القصيرة ، ومن انجلترا وفدت إليها عاطفية سترن ، ثم عاطفة يونج واوسيان ولم يرحل إليها الغرب أدبه فحسب ، بل أرسل فلسفة أيضاً ، وأخذت هذه الفلسفة تتنازع وتقايل الأجداد ، حتى أخذ بعض الروس يقسون في الحكم على مؤسساتهم وولد يومئذ ما يسمى بالرأي العام .

ولقد كان لكاترين الثانية نصيب كبير في تحرير العقول هذا ، وإن اسفت على ذلك فيما بعد ، ما من حاكم احتل في حياة بلاده الفكرية ما احتلته كاترين

الثانية من مكان عظيم . إنها في «تعاليمها» التي وجهتها إلى اللجنة الموكل إليها تحضير قوانين جديدة ، لتبدو فيلسوفة من الطراز الأول ، وهي تستوحى في ذلك كتاب «روح القوانين» لمونتسكيو ، وإنما تحل محل الملكية المعتدلة حكماً استبدادياً نيراً . ولقد كتبت كذلك مسرحيات هزلية ، وأوبرات هزلية وحكايات أخلاقية ، وقصصاً خرافية ، ومقالات للمجلات ، مدفوعة إلى هذه الميادين كلها برغبة قوية في تهذيب الشعب الذي أصبح شعبها ، وبإيمان صادق بأن هذا الشعب لن يقوده من هو خير منها . لذلك سرعان ما أصبحت تنظر بعين الخوف ، إلى هؤلاء الكتاب الذين منحتهم حرية واسعة ، فشجعهم ذلك على السير في طرق خطيرة .

وأنت بعض المؤسسات ، كجامعة بطرسبرج ، قد أنشأت في منتصف القرن تقريباً بعض المجلات . وأولى المجلات التي أنشأها فرد هي المجلة التي أصدرها سوماروخوف عام ١٧٥٦ بعنوان «النحلة النشيطة» وكانت تنشر آثار أدبية ، روسية أو مترجمة . وعلى غرار سوماروخوف أنشأ خيراسكوف مجلة في موسكو إلا إنه لم يكن لهذه المجلات عدد كبير من القراء ، وكانت حياتها حياة عابرة . ولا شيء يدل على ما حققته روسيا من تقدم في الثقافة كالزواج الذي لقيته بعد ذلك بعشر سنين المجلات التي ظهرت في عهد كاترين أولى هذه المجلات اسميت «قليل من كل شيء» «Vsiakaia Vsiatchina» وقد أنشأتها الامبراطورة نفسها ، مستعيرة اسم أحد أمراء السر . وكانت تستلهم فيها مجلة سيكتاتور (تنتقد جهل الجيل القديم وخرافات من جهة ، وتنتقد اندفاع الشبيبة في تقليد فرنسا من جهة أخرى) وكل ذلك في رفق ولين ، وفي ابتسامة متسامحة ، وكانت تنتقد الموظفين المتقاعسين الكسالى ولكن دون أن تتعرض للمؤسسات بسوء . ولم تكن تلك لهجة المجلات الأخرى التي تأسست على غرارها ، ولا سيما لهجة المجلة التي أصدرها نوفيكوف .

لقد كان نوفيكوف (١٧٤٤ - ١٨١٨) يتألم من نقص ثقافته الأولى ، فوقف كل ما أوتي من نشاط سخي ثراً ، خلال حياته كلها ، على تعليم مواطنيه ، وفي

عام ١٧٦٩ أصدر مجلته «الدبور» ولم يقتصر على مهاجمة النقائص العرضية ، كسوء الاستعمال وما أشبه ذلك ، بل هاجم العيوب الدائمة العميقة في نظام الحكم نفسه وهاجم تلك الآفة الأساسية في البناء الاجتماعي للبلاد ، إلا وهي العبودية ، وصوّر بأقسى الألوان بوعى الفلاحين ، وطغيان السادة . واحتجت كاترين ، في مجلته الخاصة ، على تدخل الصحفيين في شؤون لا تهم غير الحكومة ، وبادر نوفيكونف فرد على هذا الاحتجاج رداً حاداً قاسياً ، ولكن كان من الطبيعي أن يغلب على أمره في صراع لا تتكافأ فيه القوى وتعطلت مجلة «الدبور» عن الصدور . وبعد ذلك بثلاث سنين عاد نوفيكونف إلى هذه الآراء نفسها في مجلة «المصور» التي كانت حياتها قصيرة كذلك . ولم يصدر بعد ذلك إلا مجلات تربوية ودراسات تاريخية ، وحين ترك بطرسبرج عام ١٧٧٩ إلى موسكو، انصرف مع أصدقائها الأحرار الماسونيين ولاسيما شوارتز ، الأستاذ في الجامعة ، وتلميذ يعقوب بوهمه وسان مارتان ، انصرف إلى انشاء مطابع حاو حاولت ان تسدّ النقص فيما يتعلق بالكتب التعليمية التي كانت تعوز روسيا . ولكن كاترين سرعان ما اشتبهت ، في أعمال الماسونيين بموسكو ، فظنت خطأ أن هؤلاء الناس المشائين علاقات بشوريي فرنسا فشردتهم عام ١٧٩٢ ، وجبست نوفيكونف في قلعة شلوسلبرج التي خرج منها محطماً حين اعتلى العرش بولس الأول .

وهناك رادشتيسيت (١٧٤٩ - ١٨٠٢)، وكان رجلاً ثورياً في طبعه ودمائه . وكان أكثر ثقافة من نوفيكونف ، درس الحقوق والفلسفة في لبيزيج . وفي عام ١٧٩٠ استطاع ان ينشر بعد موافقة رقيب غافل ، كتاباً بعنوان «رحلة من بطرسبرج إلى موسكو» ، وكان الكتاب يحتوي وراء هذا المظهر ، مظهر رحلة عاطفية على طريقة سرن كان يحتوي هجوماً على العبودية جريئاً ، ليس لجرأته من مثيل ، وقد صوّر قسوة هذه العبودية تصويراً حياً بسلسلة من لوحات رائعة أسرة ، ويحتوي الكتاب أيضاً هجوماً على الاتوقراسية ، وتلويحاً لها بثورة يقوم بها الشعب وتأتي على الأخضر واليابس .

وقد قرأت كاترين هذا الكتاب ، في انشداه وذهول ، وذعر ورعب ،
وحكم على رادنشتيف بالموت ثم خفف الحكم إلى النفي في سيبيريا ، وعاد من
منفاه بعد موت الأمباطورة ، ثم لم يلبث ان انتحر أما كتابه الذي أمكن ان
تقلت بعض نسخه من الاتلاف ، فلم يظهر كاملاً إلا بعد مضي مائة عام على
ذلك .

ان روح النقد التي شاعت في ذلك العصر تتجلى كذلك في المسرح ولكن في
قصد واعتدال . فهي تندس في مآسي كنياجنين ، كما اندست في مآسي قدوته
فولتير . ونرى كاترين الثانية تهاجم في مسرحياتها الهزلية ، كما هاجمت في
مجلتها الاسراف في التعبد («أيها الزمان» ١٧٧٢) ، والاسراف في تقليد
المودات الفرنسية وكثير من المسرحيات الهزلية تهاجم الماسونية ، وتهاجم هذا
الميل إلى السرّ ، الأخذ في التزايد والسخو ، «الخادع» ، «المخدوع» ،
«الكاهن الشاماني» . وتعدّ مؤلفات نونفيزين أولى الروائع التي عرفها المسرح
الروسي . نذكر منها «قائد الفرقة» (١٧٨٢) ، و«القاصر» (١٧٨٢) ، أما
المسرحية الأولى فيمكن ان لا تعتبرها أكثر من لوحة مسلية مضحكة تصور
العادات الشائعة وتسخر من مساوئ الجيل القديم ومن افراط الشبيبة في التأثر
بالفرنسيين . وأما الثانية فهي أثر قوي جبار يرينا المأساة المفجعة من وراء
المظاهر التي لا تستطيع ان تغالب ضحكك حين تشهدها (كما في أحسن
كوميديات موليير) وهي تصور تربية فتى ريفي من أنصاف النبلاء ويصور بيئة
هذا الفتى ، ولا سيما أمه مدام بروستاكوفا ، وهي امرأة طاغية مستبدة بخدماها
واسرتها ، طماع ، منافقة ، سخيفة ، كادت تكون شيطانا عجيباً لولا حبها
الأمويلا بنها ، ويصور المؤلف في هذه المسرحية شخصية أخرى هي شخصية
متروفانوشكا الغبي ، كما إنه يجري على لسان ستارودوم آراء الشخصية التي
تفيض بالحكمة وحسن النظر وسلامة الذوق .

وقد شاعت أيضاً مودة الأوبرا الهزلية ، وأحسن آثارها مسرحية ابليزيعون
بعنوان «الطّحان الساحر ، الخادع الكاذب» ، وإنك لترى العادات والأغاني

الشعبية تحتل فيها مكاناً كبيراً .

والشعراء ظلوا ينظمون في الفنون الشعرية الرصينة ، وهاهو خيراسكوف ، في «روسيا» المملة يتغنى على اقدام أساليب الملحمة الكلاسيكية باستيلاء ايفان الرابع على قازان ، ويتغنى في «فلاديمير» بتعمير روسيا . إلا أن ثمت معارضات شعرية هزلية وقصائد بطولية مضحكة تنبجس في هذا العصر نفسه ، من ذلك «ايليري أو باخوس الغاضب» لفاسيلي مايكوف ، وهي تمثل التظاهر بالبطولة على جبن . ومن ذلك هذه القطعة الرشيقة الحلوة التي وضعها بوجدانوفتش بعوان «دوشنكا» وهي تنقل «غراميات بسيشة» للافونتين في أشعار مرسلّة . مع إضافة بعض الملامح الروسية وهناك أيضاً القصص الخرافية التي نظمها خمنتزر مستوحيا جلوت ، وادع فيها دروساً أخلاقية محبّة .

وقد نظم خيراستوف ، وبتروف ، وغيرهما أيضاً ، قصائد تتغنى بالانتصارات ، إلا ان هناك شاعراً كبيراً قد جدد هذا الفن ، هو جبرائيل درجايف (١٧٤٣ - ١٨١٦) ، وهو من أسرة تربية الأصل ، كان أبوه ضابطاً فقيراً ، ولم يتح له أن ينال في طفولته شيئاً من التعليم ، وظل خلال مدة طويلة يعمل جندياً بسيطاً ، ثم رقي ضابطاً في التاسعة والعشرين من عمره . وكأنما دفع في طريق مجهولة ، إلا أن أشعاره جعلت له حظوة لدى كاترين ، فعين محافظاً في الأقاليم ، فسكرتيراً شخصياً للامبراطورة ، فعضوا في مجلس الشيخ ، ثم عين في عهد الكسندر الأول وزيراً للعدل . ولكن طبعه الذي لا يعرف المسايرة ، ومبادئه التي لا يتنازل عنها ، لم تتح له أن يمكث مدة طويلة في أية وظيفة من هذه الوظائف . على ان قيمته الأدبية ظلت أمراً لا يجاري فيه أحد وكان الشاعر الرسمي للعهد ، فغنى أمجاده ، ولكن على نمط جديد فيه ظرف وبشاشة وألفة . وقد استعار من قصة لكاترين اسم فياستا فأطلقه عنواناً لقصيدة منح فيها الأمباطورة لا على أنها الهة ، بل على أنها امرأة ذكية الفؤاد ، طيبة القلب ، وقارن بين مايزينها من بساطة ونشاط وتسامح

وبين ما يرى فيمن يحيطون بها من غطرسه ، وميوعة وكسل . ولشد ما سرت
كاترين بان وجدت نفسها في هذه الصورة الجميلة التي رسمها لها الشاعر .
وقد نظم شاعرنا قصائد ذات وحي ديني مثل «الله» الشلال» (وهذه الأخيرة
أوجاها إليه موت بومتيكن) ، وهي شعر وصفي على طريقة بوب ودليل إلى
رنين رثائي من صدى ارسيان ، وإلى غنى في الصور خاص هو ملك درجافين
لم يستمده من أحد ، وإلى مناظر روسية أصيلة . أما حبه للطبيعة الروسية
فيتجلى أكثر من ذلك في قصائده الاناكريونية ، في قصيدة بعنوان «الحياة في
زفانكا» مثلاً ، حيث يصف لنا الشاعر يوماً قضاه في الريف ، وإن آثار
درجافين لتفاوت في قيمتها (قال عنها بوشكين أن ثلاثة أرباعها من رصاص
وربعها من ذهب) ، ولا سيما لغته ، فهي تتفاوت قوة وضعفاً ، فإذا قرأته
وجدتك أمام عبارات مهمة تارة ، خاطئة تارة أخرى ، ولكنك تجد نفسك
فجأة أمام بيت يبلغ من السمو والرشاقة ما لا عهد به قبل درجافين ، لقد كان
يعوزه لينعم به الجليل المقبل من سداد الحكم ونفاذه ، وما ستعبر عن
الرومانطيقية من عمق الانفصال .

وإننا لنرى من هذه الرومانطيقية التي تنشأ في نهاية القرن في أوروبا كلها
بعض العلاقات التي تسبق القافلة وتكشف عن الطريق . وأبرز هذه
العلامات من غير شك ، ذلك الافتتان المتزايد بالماضي القومي ، على الجهل
بتاريخه ، وذلك الافتتان بالشعر الشعبي ، على تحويره بما يلائم فروق
العصر . وها هو تشولكوف ينشر فيما بين عامي ١٧٧٠ و ١٧٧٤ ، أي تقريباً في
نفس الوقت الذي فعل فيه برسي مثل ذلك في إنجلترا ، هاهو ينشر «مجموعة
من الأغاني المتنوعة» ، سبقها (١٧٦٦ - ٦٨) بنشر «الساحر أو حكايات
سلافية» وأعقبها بنشر «حكايات روسية» (١٧٨٠ - ٨٣) . إنهم يخلقون
أساطير سلافية بأي شكل من الأشكال يجمعون نتفا من هنا ونتفا من هناك .
ويعلمون بشعر سلافي بدائي . وفي هذه اللحظة تسعفهم العناية الألهية ،
فيكتشفون ما اسمي «بمعركة ايجور» التي سبق الحديث عنها . . وفي عام
١٨٠٤ ظهرت أول مجموعة مما أسموه «القصص الحق» Bylines .

والتيار الثاني الذي شهدته نهاية القرن الثامن عشر هذه قد أتى هو الآخر من الغرب ، مع روسون وسترن ، ويونج ، واوسيان ، وإنه ليلبي هو الآخر حاجة عميقة في الروح الروسية ، ويناسب غريزة من غرائزها اعني تغليب العاطفة على العقل . وقد دام تأثير روسو في روسيا أكثر مما دام في أي بلد آخر . حتى لتحسه في آثار تولستوي نحن الآن في عصر الصدمات العنيفة ، والحب الافلاطوني ، والتأمل فوق القبور . .

وقائد هذا الجيل الجديد هو كارامزين (١٧٦٦-١٨٢٦) الذي نشأ في بيئة نوفيكونوف وفي عام ١٧٩٠ قام برحلة طويلة إلى الخارج فذهب إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وانجلترا حيث ولدت «رسائل سائح روسي» وهي رسائل تحمل طابع شخصية ، رغم أنها تذكر بشتن . وفي ألمانيا التي يعدها بلاد الفكر والفضيلة قابل كنت وفيلاند وهردر ، أما جوته الذي رجع مع ذلك من إيطاليا فقد ظل بالنسبة إليه مؤلف «فرتر» وفي سويسرا ، بلد الشعر ، وقف على ضفاف نهر ليمان يحلم ، وفي يديه «هيلوثيز الجديدة» أما فرنسا ، بلد اللغو والثورة ، فقد شاقته أكثر مما جرؤ على التصريح بذلك ، ولكنه أثر عليها انجلترا الحساسة ، انجلترا سترن ديونج . وكان جمال الطبيعة ونماذج الفضيلة تستدر دموعه في كل من هذه البلدان . وإنك لترى هذه العاطفة نفسها ترين على شعره (وهو دون نثره) وترين على قصته ليز المسكينة (١٧٩٢) التي يصور فيها بساطة وصدق فتاة من الشعب ، ازاء مفاسد أهل الحضرة . وكانت الرواية العاطفية قد ظهرت قبل ذلك الوقت بظهور رواية «رسائل ارنست ودورافرا» التي كتبها أمين (١٧٦٦) اقتباساً من «هيلوثيز الجديدة» ، ورواية «بامبلا الروسية» التي كتبها لفوف (١٧٨٩) ، إلا أن قصة «ليز المسكينة» قد ضمنت الظفر للرواية العاطفية وما لبثت ان قلدها كثيرون .

وأن البساطة التي تتجلى في الفلاحين لتوجد أيضاً في الماضي وها هو كارامزين يحدثنا عن الفضائل الروسية القديمة في قصص تاريخيه مثل ناتاليا ، ابنة البويري ، (١٧٩٢) ، «ومارفا البوزادنستا» . ولقد كان من معالجة

القصص التاريخي ان أصبح بعد ذلك مؤرخاً يقف على التاريخ كل نشاطه . وفي عام ١٨١٦ نشر الأجزاء الثمانية الأولى من كتابه «تاريخ الدولة الروسية» وظل يعمل في كتابه هذا المؤلف حتى وصل به إلى عهد أسرة رومانوف ، وهناك وافاه الموت . وهو في تاريخه هذا يجيد الانتفاع بأخبار الماضي ليرسم صوراً حية براقعة غرف منها الكتاب بعد ذلك ملء أيديهم مواضيع لدراماتهم ورواياتهم . والفكرة الرائدة في هذا الكتاب هي تجميد الوحدة الروسية في ظل القيصرية الاوتوقراطية حتى لقد أدت هذه الفكرة بكارامزين إلى التكرار لحماسته أيام الشباب ، وإلى أن يأخذ على بطرس الأكبر إنه حرف روسيا عن طريقها الصحيح .

وتتميز لغة كارامزين عن لغة سابقيه تميزاً واضحاً فهو يقطع الصلة بالسلافونية ، ويستعير من اللغات الأجنبية أو يشتق من أصول روسية الألفاظ التي تعوزه للتعبير عن معان جديدة كما إنه يسهل التراكيب ويبسطها ويرشقها فهو خالق اللغة الأدبية الحديثة . وقد تتبع خطاه جميع كتاب جيله تقريباً مثل دمتريف في مواباته وقصائده الخرافية الجميلة ، وفاسيلي بوشكين في أشعاره الاباحية ، وكذلك كتاب الروايات و«الرمالات العاطفية» . ومع ذلك فقد قامت حول هذا اعتراضات واحتجاجات ، وهي اعتراضات يبررها ان اللغة كانت معرضة لخطر فقدان أصالتها القومية ، إلا أن ممثلي المحافظة على القديم ، وكان على رأسهم الأميرال تشيخوف الذي دافع عن السلافونية في كتابه «في الأسلوب القديم والأسلوب الجديد» كانوا يقترحون لغة متكلفة مصطنعة ما كان للجمهور أن يفهمها ، وأن موهبة شعرية لخير من ألف حجة وبرهان للظفر بتأييد هذا الجمهور للإصلاح وذلك ما حققه مواهب شعراء الرومانطيقية الفتية .

الرومانطيقية

قبل بوشكين جميع الناس في روسيا شعراء ، في أول القرن التاسع عشر . فالطلاب في الجامعات والمدارس الثانوية ، والمدارس العسكرية ، مشغولون بنظم الشعر ، وبتأسيس النوادي الادبية ، واصدار المجلات والشعر يروى في جميع الصالونات ، وما من فتاة الا وبين اصابعها ديوان شعر . وكانت المناقشات السياسية ممنوعة ، فانصب الناس على الأدب يتناقشون فيه ويختصمون . وصدرت مجلات كثيرة «رسول اوروبا» أنشأها كارامزين ، و«ابن الوطن» أنشأها جريتش (لغاية سياسية في أول الأمر ١٨١٢ ، ثم ما لبثت ان انقلبت مجلة (ادبية صرفة) ، ونجمة القطب «أنشأها ريليف ، و «أزهار الشمال» أنشأها دلفيح ، و «المعاصر» أنشأها بوشكين . وكانت هذه العجالات في اول امرها تنشر آثارا مترجمة كثيرة ، وازداد فيها بعد ذلك عدد الآثار المكتوبة بأقلام اصحابها ، ولم تعن بالنقد عناية هامة الا بعد ذلك . فان «تلغراف موسكو» التي يصدرها بوليفوئي و «المنظار» التي يصدرها ناد جنين ستناقشان مبادئ الرومانطيقية ، بينما يأخذ فم بولجارين ، التقصي المأجور الذي يتحلق السلطة يقطر سماً في الكلام على عبقرية بوشكين . واذا استثنينا تلك الجماعة الصغيرة التي ستصدر مجلة «Mnemosyne» ، رأينا ان فلسفة الرومانطيقية الالمانية لم تكن معروفة على حقيقتها .

وكان الروس ، كأساتذتهم الفرنسيين ، يعجبون خاصة بـ «فتر» و «قطاع الفرق» وكانوا يعجبون بالترسكوت وببيرون ، ويرون من الرومانطيقية وجهها العاطفي الجامع ، وجانبها الوصفي الملون ، ورائد هذا الاتجاه هو جوكونفسكي .

ان حياة جوكونفسكي (١٧٨٣ - ١٨٢٥) وآثاره تفيضان بنوع من العاطفة التي سبقت الرومانطيقية . وقد تعاونت ظروف شتى على القائد في التشاؤم منها ان أمه اسيرة تركية تزوجها ابوه البورجوازي وعاش معها حياة مشحونة بالمشاكل ، ومنها التربية التي تلقاها في مدرسة داخلية بموسكو كانت ما تزال تسيطر عليها الصوفية الماسونية ، ومنها موت صديق له عزيز عليه ، ومنها حب شقي شعر به نحو احدى بنات اخوته ودام مدة طويلة وانتهى بموت الفتاة ، كل ذلك ألقاه اذن الى التشاؤم ، وقد لازمه هذا التشاؤم طيلة حياته ، لم يفارقه في القصر حيث كان مربى الطفل الذي سيصبح الاسكندر الثاني ، ولافارقه في المانيا التي نفاه اليها زواج متأخر . وقد وافته الشهرة بفضل قصيدة تغنى فيها بالانتصارات الروسية عام ١٨١٢ ، الا ان ميدانه الحقيقي هو ميدان الشعر الوجداني ، شعر النجوى الحميمية بين «بضعة افراد» شعر العاطفة ،

فهو يغني بأشعار شجية عذبة رخيمة ، الصداقة التي يختمها الموت ، والحب الذي ليس من امل ، و ينتظر الموت الذي يلم شمل الأحبة ، ويجمعهم بعد فرقة ، فيجد في هذا الانتظار عزاء وسلوى . لم يعيش شاعرنا هذا في الحاضر ، بل في الماضي يضيء عليه اجمل الصور ، وفي الحياة الاخرى التي ينتظرها ويصبو اليها . انه لا يعرف كيف يصف الواقع . ولا تزيد قصائده التي أثارت كثيرا من الاعجاب على ان تعكس عواطفه الخاصة في حلية من خيال وأوهام ، وقد ترجم الى الروسية ، في شعر ينقل موسيقى الاصل نقلا دقيقا موفقا كثيرا من القصائد الاجنبية فشاعت في روسيا وانتشرت انتشارا واسعا ، منها مرثي جراي فوق مقبرة في القرية ، ومنها «لونو» و «سجين شيون» وقصائد من ساوتي ، ودالترسكوت ، وجوته ، وعدد كبير من قصائد

شيلر خاصة ، وكذلك «عذراء اورلطان» ، واشعار من هيل ، واوهلاند ،
واوندين لاموت فوكيه (نقلها شعرا) وقصائد من روكرت وقد قضى ايام
شيخوخة هادئا يترجم ترجمة كاملة (وكان جنديتش قد ترجم قبل ذلك ، عام
١٨٢٩ ، الالياذة) ان صناعة تدين لجوكوفسكي بفضل كبير ، فقد استعمل
اوزانا وابحرا وألحانا بلغت غاية التنوع ، وسيرتها من بعده بوشكين .

وعلى ان جوكوفسكي لا يتمتع بشيء من الصفات التي يتمتع بها رئيس
مدرسة فقد التف حوله عام ١٨١٥ ، جميع تلاميذ كارامزين ليردوا على هجوم
تشيوخوف و «جماعة محبي الكلمة الروسية» فقد ألف انصار كارامزين
(جوكوفسكي ، فيازمسكي ، بلودوف ، وأوفاروف باتيذشكوف ، الكسندر
ونيكولا تورجنيف ، بوشكين وابن اخيه الذي كان ما يزال طالبا في المدرسة
الثانوية) جمعية تناوى «جماعة محبي الكلمة الروسية» واستطاعت هذه الجمعية
بما عمدت اليه من سخر فكه واستهزاء مرآن تجعل انصار السلوفونية الرجعيين
اضحوكة ومضغة في الافواه ، ولم تكن هذه المجادلات صراعا بين
الكلاسيكية والرومانطيقية وانما كانت صراعا بين ما سيدعى بعد قليل بالروح
السلافية والروح الغربية .

وكان شعراء المدرسة الفتية قد نشأوا على الكلاسيكية الفرنسية وتغذوا منها
وتأثروا بها . وظل طابعها يصبغ اشعارهم حتى حين دخلوا في طريق
الرومانطيقية . وهذا الطابع واضح في شعر جوكوفسكي ، وهو أوضح من
ذلك في شعر بافيوشكوف (١٧٨٧ - ١٨٥٥) الذي ترجم الشعراء اللاتين
ترجمة رشيقة ، ولاسيما هورواس والذي كان شعره الشخصي يضم صورا
كلاسيكية ترين عليها كآبة رومانطيقية ، كآبة لا تعود الى مودة ادبية ، وانما
تعبير صادق عن آلام هذا الشاعر الذي مات مجنونا وهذا المزيج من العاطفة
والكلاسيكية يتجلى كذلك في مآسي (تراجيديات) أوزيروف «اوديب في اثينا»
«فنجال» «دمتري دونسكوي» .

اما الملهاة (الكوميديا) المشهورة التي ألفها جريبيودوف بعنوان «شقاء من
كان اعقل مما يجب» فهي تصور بطلا رومانطيقيا في اطار كلاسيكي صرف ،

وقد اضى المؤلف على البطل كثيرا من نفسه ، وقد ولد جريبويدوف عام ١٧٩٥ ، وهو ينتسب الى اسرة عريقة والى بيثة موسكو التي بصورها في ملهاته . وقد عمل في الجندي ، ثم في السلك الدبلوماسي واوفد الى القوقاس ، والى ايران وقد انهى ملهاته اثناء اجازة عام ١٨٢٣ ، ولكن لم يسمح له بنشرها . وقد اشتبه في امره ، وظن ان له علاقات بالديسمبرين فأوقف ، ثم اطلق سراحه ثم ارسل الى ايران مقيما ، وفي طهران عام ١٨٢٩ ، اغتاله جمهور متعصب ربما كانت انجلترا هي التي استأجرته ودفعته الى ذلك ، ان جريبويدوف انسان كثيب ، مظلم النفس محب العزلة ، وقد اضطهدته بيثته بسرعة ، وآله الانتكاس الذي اعقب ما كان يعد به الاسكندر من حرية ، كما انه لم يكن من البساطة بحيث يشارك الديسمبرين او هامهم ، وهو في ملهاته يعكس هذه الآلام التي تحز في نفسه ، وملهاته هذه هي جماع آثاره ، اذا استثنينا بعض المحاولات الأخرى ، ويذكرنا بطلها ببطل قصة «مبغض البشر» الا ان بطلها تشاتسكي فتى اصغر من ألسن وأكثر منه رومانطيقية يعود من رحلة طويلة ، وهو اشد ما يكون شوقا الى رؤية الفتاة التي يحبها والبلاد التي يحب ان يخدمها . فاذا هو يرى صوفيا (التي لا تشبه سيليمين ، فهي انسانة تافهة) قد افتنت برجل بليد ، سخي ، طماع ، ويرى البلاد تسيطر عليها «المحسوبة» والخيانة والجهل والتفاهة . وفي يوم واحد يقضيه في بيت فاموزوف ، أبي صوفيا ، وهو رجل من كبار الموظفين تافه محتال يقسو على مرؤوسيه ويذل امام رؤسائه وامام رأي سرة القوم ، أقول في يوم واحد يقضيه الفتى في هذا البيت يشهد كل المجتمع الموسكوفي الراقي الذي تملؤه الثروة ، والنميمة والتفاهة ، والقسوة على كل من يخرج على قوانينه ، فيعزم أمره على معاودة السفر ويسافر كما سافر أسست ، موقنا انه لن يجد السعادة في اي مكان . وان لشاعرنا لحاسة مرة حادة ملتعبة يجلد بها رذائل وسخافات هذه الطبقة الراقية جلدا قويا ، هذه الطبقة التي لا تعرف غير التصنيع ، والتكلف حتى في لغتها ، فهي تتحدث بمزيج مقرف من الفرنسية والروسية . ان هذه

الاشعار المرسله الدقيقه الموجزة المصقولة الغنية بمزاوجات جديدة غير متوقمة ،
القوية فيما تحمله من روح فكاهية ساخرة المنقوشة في ذاكرة كل روسي مثقف .
وان هذه القوة في ملاحظة الناس وصياغة الشعر لينعم بها كذلك شاعر آخر
انصرف الى نظم قصص خرافية «Fables» ولكن ليس فيه شيء من
رومانطيقية ، وليس في سخريته شيء من مرارة ، وهو الشاعر كرييلوف
(١٧٦٨ - ١٨٤٤) وقد قضى شاعرنا هذا طفولة فقيرة معذبة ، تعلم فيها من
الشاعر اكثر مما تعلم من المدرسة ، وقضى شبابه يعمل ويكد ويضرب في
الارض ويتنقل من مهنة الى مهنة ، ويغامر . وقد نالت كوسيدياته وقصائده
القصصية الخرافية نجاحا واسعا ، فطبقت شهرته الآفاق ، وعين أخيرا أمينا
للمكتبة الامبراطورية ، ف قضى ايامه الأخيرة في حياة رخية مرفهة ، وظل اسم
هذا الانسان الطيب الخليع الذي يحب الحياة ويغرف من لذائذها من أشهر
اسماء الادب الروسي . واحسن كوميدياته (مثل «مخزن المودات» ، «درس الى
البنات») تهاجم عدوى الخفة الفرنسية ، كما كانت تفعل المجلات في عهد
كاترين . وان الشعب الروسي ليحب قصائده القصصية الخرافية كما يحب
الشعب الفرنسي لافونتين وبين الرجلين على كل حال شبه في بعض الصفات ،
سداد الحكم وسلامة الذوق والطيب وموهبة الملاحظة ، وهو مثل لافونتين ،
يعنى بالحكاية أكثر مما يعنى بالدرس الاخلاقي ولئن كان دون لافونتين رشاقة
شعر (ولقد كان يستعمل الشعر المرسل هو الآخر) فانه أكثر منه حيوية ، كما
ان لغته ادنى الى الشعب . وقد كانت خرافاته الاولى ، اقتباسا من خرافات
لافونتين ، وبعد ذلك نظم خرافات شخصية اصيلة صور فيها جميع الطبقات
الاجتماعية ، صور الفلاح الساذج أو المقتر ، وصور البائع الغشاش وصور
الموظف الذي لا ضمير له ، مثله صغيرا بالثعلب ، ومثله كبيرا بالفيل الحاكم
الذي يسمح للذئاب ان تفرض على النعاج ضريبة قدرها جلد واحد عن كل
نعجة ، جلد واحد لا أكثر ، وصور النبيل الفخور بأسلافه كافتخار الاوز
بأسلافها ، وهذا هو الشاعر - الهزار يرى الحمقى يؤثرون عليه الديك ، لان

صوت الديك أقوى من صوته الرخيم وأكثر رنينا ، اواهو الشاعر الهزار بين غhalb القط يؤمر ان يغرد ومابه الى التغريد ميل . ولاشك ان هذا النوع من الشعر القصصي هو الذي يتيح للشاعر مثل هذه الجسارة في الكلام ، وقد ارتفع في هذه الجسارة عام ١٨١٢ الى حيث حدثنا عن غيظ الذئب نابليون الذي ظن انه امام نعاج فاذا هو أمام كلاب ضارية ، ان ما تتمتع به هذه القصائد القصصية من ايجاز في السرد ، وحيوية في الحوار وعذوبة في اللغة التي تستعمل اقوالا وامثالا شعبية ، وتصل في الوقت نفسه عبارات تجري بعد ذلك مجرى الأقوال والأمثال ، كل ذلك جعلها أحسن آثار هذا النوع من الادب ولم يحاول أحد بعدها ان يضارعها .

بوشكين - ان جميع التيارات الشعرية في بداية القرن التاسع عشر هذا ، من ثقافة كلاسيكية ورومانطيقية ومن تأثيرات اجنبية وتقاليد قومية ، ومن احلام وواقعية جميع هذه التيارات قد صهرتها عبقرية بوشكين ، على انسجام وجمال . فكل ماقد سبقه ، وكل مايحيط به ، كأنما قد وجد ليهيئ التربة التي سيتفتح فيها شعره ازهارا ليس لها من مثيل .

وانك لتلاحظ المفارقات حتى في اصلابه الذين انحدر منهم ، فمن جهة أبيه أسرة روسية قديمة ، ومن جهة امه جد حبشي جعله بطرس الاول قائدا ، واذا نظرت الى وجهه رأيت شعرا جعدا ، وشفتين غليظتين ورأيت في الوقت نفسه عينين زرقاوين وانفا أعنب مستقيما على ان ابويه كانا متناسبين ، يحب كلاهما اللغو والكلام بدرجة واحدة . وقد ولد شاعرنا الكسندر سرجيفتش بموسكو عام ١٧٩٩ ، وربى على يدي جدة عجوز ، ومربية «Niania» تعرف كثيرا من الحكايات الجميلة . الا انه كان يسمع الناس في صالون أمه يتحدثون عن الشعر ، وكان الأب والعم يقرضان الشعر ، وكانت مكتبة الاسرة تضم كل الشعر الخفيف الذي انجبه القرن الثامن عشر الفرنسي وكان الطفل يجيد الفرنسية وهو صبي في المهد ، فرعان مأخذ يقلد هؤلاء ، بالفرنسية طبعاً .

وقبل عام ١٨١١ في المدرسة التي كان أنشأها الامبراطور الكسندر قريبا من

قصره في تساركو سيلوفلم يعن عناية جدية الا بالادب ، وكان يكثر من التنزه في الحديقة وقامت بينه وبين غيره صداقات قوية ونظم شعراً كثيراً اعترف بقيمته كثير من الشعراء الذين يكبرونه سناً ، عمه ، وجوكوفسكي ، وحتى درجافين .

وفي عام ١٨١٧ عين موظفاً في الشؤون الخارجية ، وتمتع بملذات العاصمة ، ونظم اشعاراً خفيفة وفي عام ١٨٢٠ نظم قصيدته الاولى «روسلان وليودميلا» وهي قصيدة بطولية هزلية على غرار ما عرفه القرن الثامن عشر من هذا النوع من الشعر ، الا ان قصيدة بوشكين جديدة بخيالها ، ومرحها ، وسحر لوحاتها ورشاقة اوزانها .

لكن لصاحبنا مشاغل اخرى اخطر من هذه ، فلئن لم ينتسب الى الجمعيات السرية ، فانه قد اتصل بالديسمبريين وهذه قصائد ملتبهة يتداولها الناس «القرية» «الحرية» ، وهامهي هذه القصائد تصل الى ايدي البوليس الامبراطوري ، وهامو بوشكين يبعد كموظف الى كيشينيف ثم الى اوربا . وان السنوات التي قضاها في الجنوب قد اذكت موهبته واغنتها ، وكشفت له عن المرعى والجبل والبحر (لقد قام برحلة الى القوقاز والقرم) وأرته شعوباً متنوعة ، فكان من الطبيعي ان ترين عليه مسحة من حزن يقظ جدير ببطل بيروني ، وتحلى ذلك في سلسلة من القصائد «سجين القوقاز» ، «قطاع الطرق الأشقياء» (قطعة) ، «الفجر» وفي قصيدته «ينبوع باختش ساراي» ، وهي قصيدة رومانطيقية جداً كذلك ، يقص لنا قصة محزنة عن حريم القرم . وانك تجد هذه الذكريات الجنوبية الساحرة في اشعار أخرى جميلة مثل «الى البحر» . وفي قصائد اخرى يتغنى شاعرنا بحبه ، وقد نظم ايضا قصائد تدل على انها لم ينس آراءه ومعتقداته مثل «الخنجر» (تقليداً لشيئيه) .

وقد أدى به استقلال طبعه ، وشذوذ سلوكه الى كرهه حاكم اوديسا وعاداه واستطاع ان يحصل على التخلص منه عام ١٨٢٤ . وارسل بوشكين بعد ذلك الى قرية ميخائيلوفسكوي التي تملكها أسرته ، ومكث فيها تحت رقابة البوليس .

وقضى هناك أكثر من سنتين وحيدا ، الا من عزاء مصادقة بعض النساء في مجاورة وفيها عدا ذلك لم يكن من رفيق في ليالي الشتاء الطويلة الا مربيته الامينة ، وآلهة الشعر . وان هذه العزلة في الريف الروسي قد انضجته وبدلته . وهاهو الآن يؤثر على بيرون الذي لا يعرف «ان يصور الا نفسه» يؤثر عليه شكسبير ولتر سكوت ، وهاهو يؤثر على مناظر البلاد الغربية ، منظر غدير أو «أكمة رملية وشجرتي حمير بالقرب من عزبة» او منظر عربة تجري في السهل الابيض وترن اجراسها في وقع موسيقي عذب ، في ميخائيلو فسكوي انما أصبح بوشكين شاعر الأرض الروسية أو قل شاعر روسيا القومي .

وهاهو يحكي ماضي روسيا في درامته «بورمسي كاوونوف» ، وهي رواية تاريخية على طريقة شكسبير يخالف القواعد الكلاسيكية فيضم مشاهد لاحصر لتنوعها من حيث المكان والنوع والأسلوب . وتدور الرواية حول بطلين رئيسيين الأول : هو القيصر بوريس ، وهو سياسي حاذق وحاسم ، ولكن قوته قد اضناها تأنيب الضمير فانه ما حصل على العرش الا بقتل طفل ، والبطل الثاني هو ديمتري الزائف الجدير ايضا بان يكون قيصر ولكنه هو الآخر ينوء تحت حمل خطيئة هي الغش ، وحول البطلين ترى كل روسيا القديمة ، ترى الكرملين والبوير والصومعة وميادين القتال والمحلات العامة تضطرب فيها جماهير متغيرة لا تستقر على حال .

وهاهو يخصص لروسيا الحالية رواية شعرية عنوانها «أوجين أونيجين» بدأ نظمها حين كان في الجنوب وانجزها عام ١٨٣٠ ، ولكنها حملت معناها في ميخائيلو فسكوي . اوفيجين شاب خيبت الحياة آماله على ضحوة ، فأصبح ريبا قاسيا ، ومضى يعيش في قرية روسية حياة كآبة وتشاؤم ، ويعرض له فتاة تحبه ويرفضها ، ويمضي على سبيل العبث يفسد سعادة صديق له ، وينتهي بقتل هذا الصديق في مبارزة قامت بين الاثنين . وبعد ذلك تتزوج الفتاة التي احتقرها فيهم بها ، ولكنها تصده . انك لتشعر في أول الأمر ان المؤلف يكاد

يتحد بشخصية بطله ، متأثرا بببيرون ، ولكنه سرعان ما يدين بطله ، ويتجه بتعاطفه الى تاتيانا ، الفتاة الروسية الحقة ، التي تربت تربية افرنسية ، ولكنها مع ذلك قريبة من الشعب «الروسي بروحها دون ان تعرف لماذا» ، ان النشيد الاول من هذه القصيدة يرسم لنا يوما من حياة غندور من بطرسبرج والاناشيد التالية تسير بنا الى الريف ، فتصور لنا اصدق جوانب الطبيعة الروسية ، وتصور لنا عادات الزمان السالف التي ما زالت منازل الضيافة في بيوت النبلاء تحتفظ بها صافية قوية ويصور لنا الخرافات الشعبية التي تشارك تاتيانا في الاعتقاد بها ، ان هذه الرواية الشعرية هي أول رواية واقعية في الادب الروسي ، وهي في الوقت نفسه احفل قصائد الادب الروسي بالموسيقى .

وهكذا اكتشف بوشكين الروح القومية أثناء عزله ولكنه ، وكان في منأى عن الحركات الفكرية وحين اعتلى نيكولا العرش غفر له ، واتي به الى موسكو ووعد ان يكون الرقيب الوحيد عليه في المستقبل الا ان الوعد كان خداعا ، وظل الشاعر طيلة حياته تكدره اضطهادات الكونت بنكندروف الذي كان يشبهه في كل سطر يخرج من قلم بوشكين . وزادت وطأة الحياة على كاهله بعد زواجه عام ١٨٣١ من الفاتنة ناتاليا جوفتشاروفا التي فرضت عليه حياة اجتماعية تخالف ذوقه ولا تتفق مع ميوله واضطر حتى تستطيع امرأته ان تظهر في البلاط ان يقبل عملاً «Kammerj umhen» . وهو عمل مضحك بالنسبة الى من كان في مثل سنه ، ومثل قيمته . وكان في كل خريف ينزوي في أرض له ببولدنو ، حتى يستطيع ان يعمل . وهناك كتب روائع آثاره .

وتستوحى هذه الروائع ، منذ ميخائيلوفسكوي ، بنوعين من ينابيع الالهام ، روسيا الماضي ، والحياة الروسية الحالية . وقد ازداد شغف بوشكين بالتاريخ شيئا بعد شيء وعنى خاصة بدراسة بطرس الأكبر فجمع وثائق كثيرة عن عهده ، وتغنى بانتصاراته الحربية ، وظفره على شارل الثاني عشر ومايزبا في بولتافا (١٨٢٨) ، وفي «الفارس البرونزي» يقارن بين الارادة الجبارة التي يتمتع بها باني العظمة الروسية وبين الرغبات الانسانية الوضيعة التي تمنح الى

السعادة وراحة البال . وهو يحدثنا عن بطرس الأكبر أيضا في روايته النثرية التي لم ينجزها والتي يحكي فيها ذكر جده الحبشي ، وعنوانها «زنجي بطرس الأكبر» الا ان هناك شخصية كبيرة اخرى تختلف عن شخصية بطرس الأكبر كل الاختلاف ، تستهوي كذلك هي شخصية بوكاتشيف ولعل هذا ان يرجع الى ان في نفسه تمردا خفيا مغبثا . وهاهو يدرس على الفور ، تاريخ ثورة بوجاتشيف ويخصص لها قصته «ابنة الكابتن» وهي قصة تعد مثالا اعلى في جمال الایجاز ، والانطلاق الطبيعي وغنى الصور والألوان .

ومع هذه الآثار التي تحدث فيها بوشكين عن الماضي الروسي ، كتب سلسلة من الآثار الشعرية والنثرية عن حاضر روسيا ، فهناك قصائد قصيرة فكاهية وواقعية مثل «الكونت نولين» و «منزل كولومنا الصغير» ، وهناك عدد من القصص . وانه في ابرز قصصه التي جمعها عام ١٨٣٠ بعنوان «قصص بيلكين» يفوق جوجول في تصويره لحياة صغار الناس ، وفي قصته «طلقة نار» يرينا وجه رجل قاتم النفس متجه الى الانتقام اتجاها عنيفا ، وهو يشبه شخصية قاطع الطريق دروبروفسكي (بطل قصة لم تسم) ويشبه كذلك شخصية هرمان في قصته «La Damecle Dique» وهذا المقامر الذي تلازمه فكرة ثابتة ، كانه شخصية من شخصيات دوستويفسكي . ان الحوادث في هذه القصص سريعة ، مركزة في مشاهد محكمة السبك ، واللغة دقيقة ، بسيطة ، رشيقة .

على ان الآثار التي يظهر فيها بوشكين اقرب ما يكون الى الروح الروسية انما هي حكاياته الشعرية اللطيفة ان موضوعات هذه الحكايات جميعها (ماعداد واحدا) مقتبس من خارج روسيا ، الا ان الشاعر قد جعلها روسية ، اذ حكاها كما يحكي الشعب ، وعبارات الشعب . ما من شاعر حاول ان ينظم شعرا شعبيا على هذا النحو الا أحسست فيه التصنع ، الا بوشكين .

ان الشعر الغنائي الذي نظمته بوشكين متنوع في شكله ومادته تنوعا لا حد له . فلغته الصافية دائما تستعمل جميع موارد الروسية ، من السلافونية

الفخمة ، الى لغة الصالونات المألوفة ، الى عبارات الفلاحين العذبة ، وليس بوشكين مجددا في الاوزان إلا لأنه استعمل جميع الاوزان التي استعملها سابقوه ، وادخل فيها موسيقى جديدة ، موسيقى رصينة تارة ، وتارة راقصة كأغنية ، وان شعره يصور جميع جوانب الطبيعة الروسية الرائعة منها والمألوفة . وهو يغنى الحب بالبسم المشرق ، كما يغني الحب الباكي الحزين . الا انه في السنين الأخيرة يعبر في الغالب عن كآبة فيها تسليم واذعان ، وعن صبوة الى الهدوء ، وتفكير في الموت ، ومع ان بوشكين قد نظم في شبابه اشعارا تحريرية ، فانه لا يتصور الشعر سلاحا من اسلحة النضال وانما يريد له ان يخلق طليقا فوق خصوصيات النهار ، وان يرتفع جماله بالنفس منزها عن الغرض ، فالشاعر كاهن ليس عليه ان يمسك بالمكنسة ويأخذ بتنظيف الشوارع . ان الشاعر هو «النبى» الذي ظهر له الملاك في الصحراء .

ومتى حقق الشاعر رسالة الجمال التي عليه ان يحققها ، فليست تفيد بعد ذلك احكام «العامة» وهو لا يقصد «بالعامة» افراد الشعب ، فهو لاء يملكون غريزة الجمال ، وانما يعني هذه النفوس السخيفة الطماعة الثائرة السطحية التي تلقاها في الطبقة العليا من المجتمع . الا ان هذه «العامة» قد جعلت الشاعر يدفع ثمن احتقاره اياها غاليا جدا ، فهاهي تغضب عليه ، وتدبر له مكيدة دنيئة قاسية ، تستغل مرح امرأته البريء لتجرحه بغمزات وقحة ورسائل مغفلة ، وهاهو يضطر ذات يوم ان يتحدثى افرنسيا هو بارون أنتس وان يطلبه الى المبارزة ، فيطعنه هذا في يوم / ٢٧ / يناير من عام ١٨٧٣ طعنة قاتلة ويلفظ انفاسه بعد يومين عانى خلالها آلاما مبرحة تحملها برجولة . وظل بوشكين الميت مشبوها كبوشكين الحي فتحت جنح الليل انما نقل جثمانه الى الكنيسة ثم الى دير الجبل المقدس الذي يرقد فيه الآن ، قريبا من ميخائيلوفسكوي .

رومانطيقون آخر - حول بوشكين ، أكبر الشعراء الروسين غير منازع ، كان هناك عدد من الشعراء حجبهم ظلّه ، وكان في وسعهم ان يكونوا شيئا

مذكورا لو اتوا قبل ذلك بجيل واحد . نذكر منهم الأمير فيازمски ، والبارون يندكتوف زميل بوشكين في دراسته الثانوية ، ولازيكوف ، وهؤلاء يمتازون بالعناية بالأسلوب ، فكانت لغتهم رشيقة أنيقة ، وهناك شعراء الديسبرين الذين كانوا يرون ان للشعر رسالة اخطر من ذلك نذكر منهم كوشليبيكر ، وهو كذلك رفيق بوشكين ، وقد نفى الى سيبيريا ، ورييسليف احد زعماء البعث وقد شق ١٨٢٦ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره وكان قوي التعبير عن معتقداته ، الا ان ديوانه «يعوزه التنوع وغنى الصور وكان يقول هو نفسه انه «مواطن» أكثر مما هو شاعر ، وهناك فنفيشينوڤ ، وقد مات في الثانية والعشرين من عمره ، وكان مولعا بالفلسفة الالمانية .

وهناك ايضا باراتنسكي (١٨٠٠ - ١٨٤٤) الذي ظل مجهول القدر مدة طويلة ، وهو شاعر كبير هو احد قلائل الشعراء الفلاسفة من الروس . وقد ارتكب في شبابه خطيئة كان لها تأثير ثقيل في حياته وفي تطور طبعه . وقد أرسل الى فنلندا جنديا عاديا (وقد كشف للشعر الروسي عن جمال مناظر فنلندا في

قصيدته «ايدا»)، ولكن حتى حين اشرقت حياته بزواج سعيد ، ظل يلازمه التشاؤم ، وفي هذا التشاؤم تلمح تأثير الفلسفة الالمانية ، لكنك تلمح قبل كل شيء صدقا عميقا فهو يتحدثنا عن مضيقية الجهد الانساني ويصف لنا الأيام تنتهي لتبدأ لتنتهي الى غير جدوى ويحدثنا عن التوق الى العدم . وليس شاعرنا هذا ممن يسهل فهمهم فينالون شهرة بين عامة الناس ، انه صعب الفهم ، سواء من ناحية الاسلوب ومن ناحية الافكار . وهناك بوليغايف ، وان مصيره ليشبه مصير باراتنسكي ، الا ان هذا المصير قد انتهى على نحو أفجع ، انتهى بالادمان والمرض ، وكان جوابه على آلامه صرخات ثورة وحنق وتمرد . الا انه نظم كذلك اغاني للجنود ، عليها طابع شعبي (كما فعل قبل ذلك عام ١٨١٢) ، الشاعر المناصر دافيدوف وقد انتشر في تلك الفترة تقليد الشعر الشعبي . ولكن آثار كولتزوڤ (١٨٠٨ - ١٨٤٢) شيء آخر غير التقليد ، هو رجل من الشعب كان يعمل مع ابيه منذ نعومة اظفاره في تجارة الماشية ، فقام

باسفار طويلة في فيافي روسيا ، وتعلم بجهده الشخصي ثم اتصل بعد ذلك بالاوساط الادبية ، فازداد عندئذ شعوره بقساوة الحياة في بيئته التي شب فيها . . وقد نظم قصائد كثيرة عنى فيها افراح الفلاحين وآلامهم واعمالهم واعيادهم وغرامياتهم . . بكلام بسيط والحن جميلة .

وان الشاعر الرومانطيسي الحقيقي في روسيا انما هو لرمونتوف ذلك ان بوشكين لا يمكن ان يحشر في اطار الرومانطيقية انه رومانطيسي في طبعه ، رومانطيسي في حياته . ولد ميشيل بوريفتش لرمونتوف في موسكو عام ١٨١٤ ، وعاش حياة حزينة بلا أم تحنو عليه ، وكان مرهف الشعور ، شديد الاحساس ، وذاق كثيرا من الآلام من اتصاله برفاقه في المدرسة الداخلية التي تضم أبناء النبلاء ، وفي الجامعة ، وفي المدرسة العسكرية التي تهيأ فيها ، بعد كثير من الشرود للحياة العسكرية ، ولم يلبث ان التجأ الى الشعر يجد فيه سلواه . وقد اثار فيه موت بوشكين استياءً شديداً وألماً عميقاً ، واخذ ينظم قصائد نارية يفضح فيها الاوساط الارستقراطية التي قتلت الشاعر بوشكين .

وقد نال بذلك غضب السلطة ، فأرسل الى القوقاز ، وهناك لم تزده الذرى العالية الا احتقاراً لصالونات بطرسبرج حين عاد اليها . وانه ليجراً باحتقاره لا يخفيه ، وتكثر اعداؤه تبعاً لذلك ، ويبارز خصومه ، وهاهو يبعد مرة أخرى الى القوقاز ، ويشترك في معارك يروى قصتها في قصيدته «فاليريك» وفي بيا ايجورسك يلتقي برفيق له قديم رفيق سخي فمحتال ، فما يزال الشاعر يصب سخره واستهزاءه حتى جره ذلك الى المبارزة ، فيقع لرمونتوف قتيلاً عند سفح الجبل ، وهو في السابعة والعشرين من عمره عام ١٨٤١ .

وان هذه الحياة القصيرة قد تركت لنا آثاراً كثيرة ، غارقة جميعها في حزن مرّ ، وأسى عميق ، ويرجع ذلك الى أن شاعرنا كان قائماً بطبعه ، أضف الى ذلك بعض ما لاقى من خيبة الظن أبان مراهقته ، وقد قوى ذلك كله عنده ، بتأثير موجة الكآبة التي رانت على ذلك العصر . وكان الشاعر المتألم يجد نفسه في كل

ما كان يقرأ من شعر ، وجدها في قصائد بوشكين التي نظمها إبان شبابه ، ووجدتها لدى الرومانطيين الفرنسيين الذين كان يحبهم ويقدرهم ، خلافاً لبوشكين ، ووجدتها لدى هايني ، ولكن خاصة لدى بيرون فقد اكتشف ، على رعب وذعر ، أن بينه وبينه قرابة تبلغ من القوة أنه لا يستطيع حين يعبر عن عواطفه إلا أن يبدو بيرونياً . إن قصائده الغنائية تفوح بأساً وضجراً قاتلاً . وإنه لا ينقم على الله ، كما فعل باراتنسكي أو فييني ، وإنما ينقم على البشر ، على هؤلاء البشر الذين يهدلون كل شيء عظيم . إنه يكره البشر ويحب العزلة ، ويفزع إلى الطبيعة ، وهو يفزع إلى الطبيعة لا لأنه يجد فيها صديقاً ، بل لأن جمالها ينتزعه من نفسه وقد اعجب خاصة بمناظر القوقاز الفخمة ، إنه يتخيل محاور رائعة بين جبل البروز وجبل كازيك ويحدثنا عن سعي نهر تريك محجوماً إلى بحر قزوين حاملاً إليه جثمان صبية قوقازية جميلة ، ويصف لنا تلك المضائق الوحشية التي يقوم فيها قصر «تامارا» ، الملكة التي تغني في الليل ، فتجذب المسافرين إلى اللذة والموت . وإنه ليشعر أنه أقرب إلى هؤلاء السكان الجبلين الأباة منه إلى المتحضرين فهو مثلهم يشعر في أعماق قلبه بحاجة وحشية إلى الحرية . وإنه ليحدثنا في «الترهب الحديث» عن آلام طفل قوقازي أسرته الروس وربّوه في أحد الأديرة ، إن الطفل ليهرب من الدير ، ولكنه يضل الجبل ، ثم يقبضون عليه ويعيدونه إلى الدير ، ونسمعه وهو يحتضر ما يزال يصرخ معلناً حبه للحرية إن روحه روح طليقة لا يمكن أن تضبط أو تحد .

وفي مثل هذا الانطلاق كذلك روح «الشیطان» الذي حاول أن يجد الأمن في حب فتاة جورجية يظل يلاحقها برؤى مخفية حتى في الدير الذي التجأت إليه واعتصمت به ، وتموت الفتاة من هذا الحب إلا أن الملائكة تحمل روحها ، كما في فاوست . إن موضوع هذه القصيدة الذي بدأه لرمونتوف مبكراً ، وأعاد كتابته خمس مرات ، آخرها بين عام ١٨٣٨ وعام ١٨٤٠ ، خليف بأن يذكر كثيراً ببيرون وغوته وفييني ، إلا أنك تنسى ذلك حين تقرأ القصيدة فترى هذه

الأوصاف المشرقة ، وتسمع هذا الرنين الجامح الذي تستشف وراءه روحاً
معذبة تنوق عبثاً إلى التحرر مما يكمن فيها من شر وعذاب .

ولشاعرنا قصائد أخرى من وحي آخر ، نذكر منها هذا الأثر الرائع القصير
«اغنيته» القيصر ايفان فاسيليفتش ، والشاب الاوبرتشنيكى والتاجر الماهر
كالاشنيكوف ، وفيه يصور لنا ذلك العهد القاسي ، عهد القيصر المرعب ، كما
تخيله التقاليد الشعبية ، مستعملاً تعابير القصص الحق ، مؤدياً روحه .

وله ايضا درامة بعنوان «البال المقنع» ، وضع فيها كثيراً من نفسه ، كما فعل في
المترهب الحدث وفي «الشيطان» ، ان الشخصية الاساسية في هذه الدرامة تذكر
بتشاتسكي وعطيل ، وتبرز في صورة فاجعية وسط بيئة حقيرة تافهة . واننا
لنتعرف كثيراً من جوانب شخصية الشاعر نفسه في كتابه «بطل عصرنا» ، رغم انه
حاول ان ينكر ذلك . لقد جمع لرمونتوف في هذا الكتاب خمس قصص نثرية
(١٨٤٠) ثلاث منها وهي ابرزها ، تصور لنا في ظروف مختلفة شخصية
بتشورين ، الشخص الذي قسا قلبه مثل اونيجين ، ولكن نفسه اظلم من نفس
اونيجين ، وأكثر بيرونية ، انه مليء بالتناقض ، وانه ليعرض هو نفسه هذا
التناقض ويحلله ، لقد خابت احلام صباه ، احلام الحب والمجد . فأصبح انانيا
يحب السيطرة ، ويستطيع ان يوقع الأذى في الناس ، على هدوء وبرود ، ولكنه
يفيض أيضاً حبا جامحا وعذاباً ممضاً . انه لا يشعر بالارتواء لحظة واحدة ،
فلا حب فتاة قوقازية ساذجة رقيقة يرويه ، ولا حب نساء من بيئته ، نساء
مخلصات هن أيضاً لايشفين غليله . وهناك في هذه القصص شخصيات ثانوية
مثل الدكتور فرنر وهو شخص فاجر والضابط ماكسيم ماكسيمتش وهو انسان
طيب وهناك اشخاص جيليون وقد بلغ لرمونتوف من قوة التصوير وعمق
التحليل في رسم هذه الشخصيات ما يبرهن على أنه يستطيع ان يخرج من نفسه ،
وان يكون روائيا موضوعيا من الطراز الأول . ولو عاش أكثر مما عاش ، فلعله
كان يتطور في هذا الاتجاه ويسلك سبيل الرواية ، كما فعل من قبله بوشكين .
وإذا استثنينا بوشكين ولرمونتوف ، استطعنا ان نقول ان الشر الروسي ، وهو

متأخر عن الشعر تأخرا واضحا ، لم ينتج في العصر الرومانطقي أي أثر أصيل جديد بما في الاصاله والجدة من معنى . ولقد اثرت فلسفة شلنج وفاكرودر ، وحكايات هوفمان ، وروايات جان بول ، في الأمير فلاديمير اودويفسكي الذي ألف قصصا مليئة بالخيال والسخرية السوداء . إلا أن والتر سكوت كان من الأجانب أكثر حظا من تقليد الروس ، فهاهي الروايات التاريخية تظهر بكثرة بأقلام عدد من الكتاب نذكر منهم الديسمبري بستوجيف الذي كان يكتب باسم مستعار هو مارلنسكي ، وزاجوسكين ولاجتشنيكوف ، وغيرهم . وهناك ايضا الأكراني فارجنى الذي يمتاز بجمال التصوير وقوة الفكاهة ، ولقد كان له بعض التأثير في جوجول . إلا أن توجيه الرواية الروسية وفي طريق الواقعية نهائيا كان ينتظر جوجول .

التيارات الفكرية الكبرى

لأنريد هنا أن نؤرخ الفكر الروسي . إلا أنه لابد مع ذلك من الإشارة الى التيارات الفكرية الكبرى التي اثرت في الادب أكثر من أي بلد آخر ، لأن الكاتب الروسي يكاد يستهدف دائما غاية أقرب الى الفائدة المباشرة من الجمال وحده .

إن اليقظة الفكرية التي أدى اليها في مستهل القرن اتصال الشباب الضباط بالغرب عن طريق الانتصارات التي احرزها الكسندر ، والتي مضت بهؤلاء الشباب حتى باريز ، قد أدت الى ثورة ديسمبر عام ١٨٢٥ . فلما أخفقت هذه المحاولة اتضح جليا أنه لابد من تهيئة فكرية ، لابد من مذهب أو عقيدة . وفي تلك الفترة ، في عهد نيكولا الأول ، انما ظهر الطالب الروسي ، كما ستصوره لنا الرواية كثيرا ، الطالب الروسي الذي يحاول في المتفافيزياء أو في السياسة ، ليالي طوالا ، بين لفائف التبغ واقداح الشاي . ومن المانيا أتت الفلسفة ، إن الحماسة لشلنج الذي لم يكن له مذهب سياسي لم تلبث أن خلّت مكانها لعبادة هيجل .

وماحصل في ألمانيا حصل أيضا في روسيا ، فبعض الناس رأوا في فلسفة هيجل تبريرا لما هو قائم من اوضاع أي تبريرا للاتوتوقراطية ، وبعضهم الآخر رأى في فلسفة هيجل نقطة البداية لنظريات اشتراكية كل على حسب ميوله .

إلا أن روسيا لابد أن تستمد من هذه الفلسفة تطبيقات خاصة بها ، لقد كان لها في الماضي تطور خاص ، وسيكون لها في المستقبل مصير خاص . وهانحن مرة أخرى امام المسألة التي ظن بطرس الأول انه حلّها ، هل ينبغي لروسيا أن تتعلم من اوروبا لتفوقها بعد ذلك ، ام يجب عليها أن لاتستمد شيئا من غير تراثها القومي ؟ ان هذه المسألة تشطر الروسيين الى جبهتين ، جبهة انصار الغرب وجبهة انصار السلافية وكلتا الجبهتين تستوحي في آرائها محبة الوطن بدرجة واحدة .

أنصار الغرب - في عام ١٨٣٦ ظهر في مجلة «المنظار» مقال بعنوان «رسالة فلسفية» وهذا المقال قد أقام الناس واقعدهم ، وعدّ صاحبه مجنونا ووضع تحت الرقابة الطبية عدة سنين . صاحب هذه المقال ارستقراطي متوحد يدعى تشاداييف (١٧٩٤ - ١٨٥٦) . ومذهبه الذي فصل القول فيه بعد ذلك في «رسائل فلسفية» اخرى كتبها باللغة الفرنسية وظلت مدة طويلة دون نشر ، يذهب إلى أن تأخر روسيا عن ركب الحضارة مرده الى أنها قد اخذت ثقافتها ولا سيما ديانتها من بيزانطة ، وبذلك ظلت بعيدة عن كل ماكان يتم في الغرب من امور عظيمة ، وهو يرى ان الوسيلة الوحيدة للخلاص انما هي الأخذ بالكاثوليكية والسير في الطريق التي سارت فيها الأمم الأخرى . وبهذا الثمن وحده تستطيع روسيا أن تلحق بالأمم الأخرى ، بل وان تتفوق عليها ، وأن تجد حلول المشاكل التي تمضها وتقض مضجعها .

إن تشاداييف هو ، قبل فلاديمير سولوفييف ، الكاتب الوحيد الذي طرح مشكلة التقارب مع الغرب في ميدان الدين . أما الآخرون من أنصار الغرب فكانوا يطلبون من الغرب مذاهب اجتماعية وسياسية . أما الناقد الادبي الكبير بلنسكي (١٨١١ - ٤٨) الذي يعد سانت بوف روسيا فهو كاتب ناري عنيف جذبته الهيكلية الرجعية في أول الأمر ، ثم انتقل فجأة الى المعسكر الآخر . وكان فقيرا وكان مريضا قد هدّء السل ، وكان يجهد نفسه في العمل في الصحافة ليكسب قوته أولا (اشتغل في «المنظار» بموسكو أولا ثم ببطرسبرج

بعد عام ١٨٣٩ ، ثم اشتغل في «حوليات الوطن» ثم في «المعاصر» ، ولیدافع عن معتقداته قبل كل شيء . وكان يرى أن رسالة الأدب هي أولا اذاعة الافكار الكريمة التي تأتي من الغرب ، وثانيا التشهير بالمفاسد التي تعبر روسيا . وكان عدوا لمذهب الفن للفن ، ومع ذلك فقد كان يعبد بوشكين ، لأن بوشكين قد تحول عن المثالية الرومانطيقية الى الواقعية .

ولقد اشتعل حماسه «لبعض روايات جوجول مثل «النفوس الميتة» ، وأعتبرها أقوى فقد تناول المساوىء الروسية حتى الان ، ولكنه امتلأ بعد ذلك استياء حين اكتشف في جوجول الرجعي الصوفي وقد استبشر خيرا بتورجنيف ودوستوفسكي وأعجب بما أوتيا من موهبة ، وكان ينتظر منهما آثارا واقعية عظيمة . وقد ظلت هذه المبادئ هي مبادئ النقد بعد بلنسكي . وهاهو تشرينفسكي (١٨٢٨ - ٨٩) الذي اختار موضوعا لرسالته (أطروحته) «العلاقات الجمالية بين الفن والواقع» ، يرى انه لا يعد الأثر الفني جميلا مالم يكن نقلا امينا عن الواقع ، وبذلك يشير هذا الكاتب الى طريق الاصلاح وهاهو دوبروليوبوف (١٨٣٦ - ٦١) الذي خلف تشرينفسكي ناقدا في مجلة «المعاصر» يرى إن الفن الصرف ليس إلا تسلية لغنية عاطفية ، ولا يرى ان للادب رسالة غير الدعاية ، وانه على ضوء هذا المبدأ انما يدلي بأحكامه على تورجنيف ، وجونتشاروف ، واوستروفسكي . وان بيزاريف (١٨٤١ - ٦٨) ليمضي الى ابعد من ذلك أيضا ، انه يتعوذ بالرحمن من أذى الفن ، ويتوق الى يوم لا يبقى للفن فيه من ضرورة . ولقد كان القصد سجن تشرينفسكي عامين وهناك انما كتب روايته «المعمل ؟» ، وارسل الى مناجم روسيا يقضي فيها سبعة اعوام اخر ، وحبس بيزاريف اربعة اعوام في قلعة بطرس دبولس ، وخطر هرزن ان يسافر الى الخارج ليعبر عن آرائه بحرية .

ولد هرزن عام ١٨١٢ ومات بباريز عام ١٨٧٠ ، وهو ابن سفاح من سرى روسي وامرأة المانية . درس في موسكو العلوم وفلسفة هيغل وسان سيمون ، ولم يكد يوظف حتى اعتقل ونفي الى فياتكا . ولما عاد الى موسكو كتب باسم

مستعار هو اسكندر مقالات كثيرة ، وقصة هاجم فيها العبودية بعنوان «الغراب السارق» ، وفي عام ١٨٤٦ كتب رواية «من المخطيء ؟» ، وفيها يحارب الرومانطيقية ، ويسفّه هذه الانانية التي تبحث عن السعادة في الحب . وفي عام ١٨٤٧ سافر هرزن الى الخارج ، ولكنه قد خاب ظنه عندما رأى ان ثورة ٤٨ لم تبدل شيئا في النظام الاجتماعي وان العقلية البورجوازية الصغيرة مازالت تسيطر في برلين وباريس ولندن . عندئذ من بعيد ، وضع أمله مرة أخرى في روسيا التي ليس فيها طبقة بورجوازية والتي تحقق منذ الآن شيئا من الاشتراكية بالملكية الفلاحية المشتركة فكان ينادي : لتقفز روسيا قفزة قوية ، ولتقطع المراحل التي أبطأت سير الغرب ، ولتكن في ذلك قدوة للعالم ومثالا . وكانت مجلة هرزن التي كان يطبعها في لندن واسمها «الأجراس» ، تدخل الى روسيا خفية حتى لقد كانت تصل الى مكتب الامبراطور . ولم تكن الكتب التي كان ينشرها تحت عنوان «ماض وآراء» والتي كانت تجمع بين الذكريات والنظريات والتي ظلت ممنوعة حتى عام ١٩١٧ ، بأقل تأثيرا من مجلة «الاجراس» ، إن هرزن من اول المناضلين المحرّضين الذي وجهوا الفكر الروسي من بعيد . ولكن كان هناك من فاقوه في ذلك من عديمين أو ثوريين ، مثل باكونين الذي كان يدعو الى ثورة شعبية على الفور .

أنصار السلافية - اما المعسكر الآخر ، معسكر أنصار السلافية ، فبين رجاله أيضا نفوس كريمة يجب أن لا نفعل ما فعله خصومها فنحشرها في زمرة الرجعيين الذين ليس لهم من مثل أعلى . إن دعاة السلافية هؤلاء يرجون ، هم ايضا ، تحقيق الاصلاحات ، ولا سيما الغاء الرق ، إلا أنهم يريدون أن تتحقق هذه الاصلاحات بروح روسية صرفة ، ولا تقليدا للشعوب الأخرى . فليس الرق نظاما من انظمة روسيا القديمة ، وقد برهنت روسيا القديمة هذه على روح اشتراكية ، بوجود نظام الملكية الفلاحية المشتركة «Lemin» (نلاحظ أن كلا المعسكرين معجب بهذا النظام) . وفي موسكو ، التي هي أقل تأورا من العاصمة الجديدة ، انما يظهر المذهب السلافي ، على

لسان ونستانتان وايفان اكرزاكوف ، ايفان وبطرس كيريفسكي وألكسيس خومياكوف (١٨٠٤ - ١٨٦٠) ، ان هؤلاء جميعا متعلقون بالديانة الأرثوذكسية . ولكنهم مع ذلك يشعرون بما فيها من نقص ، ربما بتأثير البروتستانتية ، ويريدون ان يعشوها ويحيوها . وهم يأخذون على الكاثوليكية انها تعتمد كثيرا على التفكير الاستدلالي ، ويرون الكنيسة الشرقية تضمن للصوفيين حرية داخلية اعظم ، ويرون أن الاوتوقراسية هي الأخرى تحمي الحرية الحقيقية ، فالقيصر اذ يأخذ على عاتقه مهمة الحكم ، يدع لرعاياه فرصة الانصراف الى الحياة العائلية وحياة الفكر والروح ، غير أن هذا لا يكمل إلا اذا كان الحاكم نفسه كاملا ، وذلك ما يصعب ان نصوره متحققا في روسيا ابان عهد نيكولا الاول . وقد ازداد قلق خومياكوف يوم وقعت حرب القرم ، فتساءل : هل تعجز روسيا عن تحقيق الرسالة التي عهدت بها اليها الساء ؟ ومالبث أن أجاب : ينبغي لروسيا أن تعمل حتى تصبح جديرة بحمل هذه الرسالة ، يجب أن تتخلص من الاصلاحات الفاسدة التي تحققت في عهد بطرس الأكبر ، وان تعود الى التقاليد القوية وان تلغي العبودية ، وان تقوى نظام «المير» وان تعيد تنظيم القضاء والادارة . وانا لنرى اذن ان برنامج دعاة السلافية في هذه النقاط لا يقل جراءة عن برنامج هرزن . لذلك لم تلبث الحكومة ان اشتبهت فيهم ، فعطلت مجلتهم «ديوان موسكو» (ثلاثة اعداد متباعدة ، ١٨٤٦ - ٤٧ - ٥١) ، واصطنعت لها مذهبا استمدت شعاره منهم ، الارثوذكسية الاوتوقراسية ، الروح القومية ، ولكن بعد ان افرغته من كل مثالية سمحة كريمة . وجعلته شعارا للرجعية . واشتدت الرقابة ، واصبح كل كاتب مشبوها مبدئيا . ولكن هيهات للاضطهاد ان توقف يوما سير الأفكار . . .

الشمعيون والماركسيون - ألغيت العبودية اخيرا ، ولكن الاصلاحات السياسية المنتظرة لم تعقب هذا الاصلاح الاجتماعي ، وهذا الاصلاح الاجتماعي نفسه كان ناقصا ، وظل الفلاحون في ظروف اقتصادية قاسية .

وتشهد روسيا عندئذ وثبة قوية تدفع بالمتقنين ان يمضوا الى الشعب «لينتشلوه من يؤسه وجهله وتعقب» العدمية الهدامة «شعبية» كريمة بناءة ظامئة الى العمل المنتج الخصب . إلا أن الآراء تنضم فيما يتعلق بالطريق الى ذلك ، فهل نبدا بتعليم الجماهير اولاً وقبل كل شيء كما يدعو الى ذلك لافروف («رسائل تاريخية») ، ام ندفعه الى الثورة دون انتظار أو تمهّل ، كما يذهب الى ذلك باكونين ، أم نقوم ، دون الاعتماد على الجماهير بل ورغم هذه الجماهير اذا اقتضى الأمر ، بالثورة التي سيستفيد منها الجماهير ، كما يذهب الى ذلك تشاتشيف ؟ (وهؤلاء الثلاثة كانوا جميعاً يكتبون طبعاً من خارج البلاد) وبينما كان كثير من الشباب والشابات ينتشرون في القرى ليعلموا الفلاحين (وسرعان ماكان يعتقلهم رجال البوليس) ، كان غيرهم من الشباب والشابات ينظمون الجمعيات الارهابية ، وكان آخرون يتلمذون على المذهب الماركسي الذي كان بليخانوف وأكسلرود وبعد ذلك لينين ، حملته . ثم تتطور الصناعة في البلاد وتنمو الرأسمالية ، وتظهر الطبقة العمالية التي لم يكن لها من وجود تقريبا قبل ذلك وهذه الطبقة يسهل تعليمها وتكتيلها أكثر من طبقة الفلاحين ، كل ذلك يغير البنيان الاجتماعي للبلاد ، ويوجه الاشتراكية اتجاهاً جديداً يسير به لينين الى النصر عام ١٩١٧ .

الفلاسفة الدينيون - لم تستطع المسائل السياسية والاجتماعية ان تحقق في روسيا الاهتمام بالمسائل الدينية . وهذه المسائل الدينية هي اساس اثار تولستوي ودوستوفسكي ، على اختلاف في الاتجاهات كبير . وهي تتجه اتجاهاً سلافياً قوياً على لسان كونستانتان ليونتييف (١٨٣١-٩١) الذي دعا قبل دخوله الى الدير في مقالاته عن (الشرق وروسيا والسلافية «الى قيام اوتوقراسية عامة تكون روسيا على رأسها) وعلى عكس ذلك كان سولوفييف يتمنى الاتحاد مع روما . ولقد كان لتفكير فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣-١٩٠٠) وهو أكبر فيلسوف روسي واول فيلسوف روسي غني بالمسائل الميتافيزائية لا الاجتماعية تأثير كبير لا في الفلاسفة فحسب ، أمثال شستوف وبردييف ، ولوسكي ، بل

في الشعراء أيضا (ولقد كان شاعرا هو نفسه) ، وذلك اذ فتح لهم ، ازاء المادية المنتصرة ، أبواب السر ، والمجهول ، واذ علّمهم ان لا يروا في العالم الخارجي الا رمز الحقيقة الخالدة ، وان يبحثوا عن هذه الحقيقة الخالدة بالاستدلالي الفعلي ، بل بالحدس والايان . وهناك فاسيلي روزانوف (١٨٥٦-١٩١٩) ، وهو ديني على طريقته الخاصة ، بدأ بالاراء السلافية وأنتهى منها الى كره الاخلاق المسيحية وتمجيد الجسد تمجيذا صوفيا . وقد حاول ميرجكوفسكي ان يوفق ، على الجملة بين سولوفييف بين المسيحية والياجانية .

اننا سنجد هذه التيارات الفكرية كلها في أدب القرن التاسع عشر والقرن العشرين ولاسيما في الرواية .

الرواية في القرن التاسع عشر

لقد كان بوشكين ولرمونتوف روائيين بارعين ، إلا أن الخالق الحقيقي للرواية الروسية إنما هو جوجول .

جوجول - ولد نيكولا جوجول في سورتشينتز بأكرانيا عام ١٨٠٩ ، وكان أبوه يعنى بالتقاليد المحلية ، حتى لقد كتب باللغة الاكرانية كوميديات استفاد منها الابن فيما بعد . وقد قضى جوجول طفولة سعيدة ، وتلقى دراساته بمدرسة عادية في ينجين ، واشتهر هناك خاصة بمقدرته على التمثيل وموهبته في ذلك . واذا نظرت الى هذا الفتى الجنوبي طالعك منه وجه ضيق ، وأنف اعنب حاد ، وعينان قويتان نافذتان ، وقد سافر عام ١٨٢٨ الى بطرسبرج ، وفي قلبه طمع جامح ، لا طمع في المجد الادبي فحسب ، فقد كان يحلم بان يكون شيئا مذكورا في حياة بلاده . وكان كثير من الاكرانيين ساخرا حالما في آن واحد ، خياليا وواقعيما معا ، قد اوتى موهبة الملاحظة والتقليد ، إلا أنه على خلاف اترابه ، فهو منطو على نفسه ، شديد الهياج ، على غير استسلام للعاطفية ، ولن يكون في حياته نساء ، ولن ترى في رواية صورة حية لأمرأة ، اللهم إلا بعض العجائز . وكان مؤمنا ، بل كان صوفيا في ايمانه ، حتى لقد كتب الى امه مبكرا ان الله قد يسهّر الى اعمال عظيمة . وما كان للمنصب الهين

الذي تهيأ له ان يرضيه وان يروي ظمأه الى المجد . وانه ليحلم في ان يعمل في التمثيل ثم هاهو يبدأ في الأدب بقصيدة بعنوان «هانس كوشلجارتن» ، يقلد فيها فوس ، إلا أنه مايبلث أن يحطمها بعد أول مقال نقدي تناولها . ويهرب جوجول الى خارج البلاد ، ومايكاد يصل الى لدبك حتى يقفل راجعا . وفي ذلك الوقت انما بدا له ، بتأثير مائلقه الاساطير الشعبية والالوان المحلية ولا سيما كل ماهو اكراني من نجاح بدا له ان يكتب في هذا اللون من الأدب ، فكتب «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا» (١٨٣١ - ٣٢) ، وقد اوصله هذا الكتاب فجأة الى مجد ادبي كان قد يش منه ، وأتاح له الوصول الى الاوساط الادبية ، وجذب اليه استحسان بوشكين وصادقته .

ولعل أوصافه لأكرانيا لم تكن دقيقة كل الدقة ، فلقد اضاف الى ذكريات طفولته شيئا كثيرا مما يحفظ من حكايات هوفمان ، إلا أن في كتابه هذا حياة طافحة فيآضة ، وفكاهة رشيقة يمازجها خيال واسع ، على عذوبة وحلاوة ، وانه ليصل في كتابه «سون سوروتشينتز» الى ذروة الفكاهة ، فكاهة تغرق في الضحك فلا تستطيع الى مغالته سبيلا ، وتحس في ذلك كله ان الكاتب بارع في رسم كاريكاتور واقعي ، وفي رسم لوحات رومانطيقية جميلة ، ان اعوزتها التفاصيل ، فلا تعوزها الصور الغنية والروح الغنائية . وقد شجعه مالمقي من

نجاح ، فقام برحلة الى أكرانيا ينعش بها ذكرياته ، ويعود منها بأفكار جديدة لمجموعة جديدة بعنوان «مرحورود» ، ولقصص أخرى . ويظل العنصر الخيالي غالبا في قصته «فيثي» إلا أن الواقعية راجحة في قصته الفكاهة «كيف ارتبك ايفان ايفانوفتش مع ايفان نيكيفوروفتش» على روح ساخرة بارعة ، اما في قصته «الملاكون في الزمان السالف الجميل» فان هذه السخرية تصطبغ بلون عاطفي ، ان الحياة العادية التي تعيشها الاسرة القديمة لتفوح شذى عاطفيا عميقا . أما «تاراس بوليان» فهي تصور الماضي البطولي لأكرانيا . في صفحات رومانطيقية جدا ، ليست صحيحة كل الصحة من الناحية التاريخية ، إلا أنها

تفيض حياة والوانا واصافا زاهية للمراعي المزهرة والمعسكر الزابوروجيين .
وان هذه الجولة التي قام بها جوجول في الماضي أوهمته انه خلق ليكون
مؤرخا ، فطلب ان يعين استاذ التاريخ في جامعة بطرسبرج ، واجيب الى
طلبه دون أن تكون له أية ثقافة سابقة في هذا الميدان . وقد اخفق في هذا
العمل اخفاقا ذريعا كان له صداه بين الناس ، وعاد الى الأدب . وأخذ عندئذ
يطبق في وصف حياة بطرسبرج الاساليب التي ضمنت له النجاح في وصف
الحياة الأوكرانية ، ولكن لما كانت حياة العاصمة لا تحوي كثيرا من الشعر ، فقد
زاد نصيب الواقعية في مؤلفاته التي يصف فيها حياة بطرسبرج ، وهذا
ماتلاحظه في «نفسكي» و«يوميات مجنون» وخاصة في قصته «المعطف» وهي
قصة موظف بسيط سرق منذ الليلة الأولى معطفه الجديد الذي اشتراه بعد أن
حلم به طويلا ، وقتر على نفسه اشد التقتير ليوفر ثمنه . وليس يهمننا المخرج
الخيالي من عقدة هذه القصة بعد تلك الصفحات الرائعة التي تصور الحياة
اليومية لهذا الشيخ المسكين ، وهي صفحات جعلت دوستوفسكي يقول ان
الرواية الروسية قد خرجت من «معطف» جوجول . ان فيها رفة عميقة من
الشفقة ، من الرحمة التي تؤذن بدوستوفسكي . فاسمع الى الموظف الشاب
يقول لنفسه فجأة ، بينما كان الناس من حوله يبهدلون أكايي اكاكيفتش ،
يقول : «ان هذا الانسان هو أخي» .

وان ما أوتية جوجول من قوة الملاحظة ، وروح الفكاهة ، وحيوية الحوار
كانت تؤهله لأن يكون كاتباً مسرحياً من الطراز الأول ، إلا أن نجاح مسرحيته
«Revision» (التي سنتحدث عنها في الفصل التالي) قد اربكه ووضعه في موقف
حرج ، فقد استاء منها الرجعيون ، وتحمس لها التقدميون وأخذ هو يدافع
عن نفسه صادقا بأنه لم يشأ أن ينتقد نظم بلاده ، ولكن ذلك لم يجده شيئا .
ولكي يهرب من الضجة التي أثارت حول مسرحيته ، ولكي يستطيع أن يعمل
في هدوء ، وكذلك تلبية لهذه الحاجة القوية إلى السفر ، هذه الحاجة التي
القت به ذات يوم في المركب الذاهب إلى لدبك ، ترك جوجول روسيا عام

١٨٣٦ ، ليعيش حياة متشردة في المانيا وفرنسا التي كره فيها تحريرتها الملحدة ، وفي ايطاليا التي احب شمسها وأحب الجو الديني الذي يشيع في عاصمتها روما ، وكان رفيق طريقه في كل حال ذلك الكتاب الذي بدأه عام ١٨٣٥ ، وهو أعظم آثار حياته ، اعنى «النفوس الميتة» التي قال هو عنها أن تاريخها هو تاريخ نفسه . الجزء الأول من هذا الأثر عام ١٨٤٢ بهذا العنوان «مغامرات تشتشيكوف أو النفوس الميتة» قصيدة ، وهو قصة محتال يتخيل أن يشتري ، «النفوس الميتة» أي العبيد الذين ماتوا بعد آخر تعداد والذين ما زال اصحابهم يدفعون ضريبة عنهم . أن هؤلاء ليفرحون بأن يتنازلوا للمحتال عن سنوات امتلاكهم لأولئك العبيد الذين ماتوا ، وذلك لقاء ثمن بخس وهو يستفيد من هذه السنوات بعد ذلك باقتراض مبالغ من المال من البنوك على أساس رهن هذه السنوات . وإنه في تجارته هذه ليطوف في القرى على عربته الصغيرة التي سرعان ما أصبحت عربية اسطوانية . وصاحبنا المحتال هذا ليس بالعجوز ولا هو بالشاب ، رجل سمين ، شديد العناية بالنظافة ، قوى الشهوة إلى الطعام ذو مزاج باسم باش ، يعرف كيف يضحك لكلمة طيبة يقولها فلاح ، ويعرف كيف يظهر في صالون الحاكم على غير ارتباك أو استحياء ، أنه يوحى بالثقة ، وما من أحد يحاول أن يعرف شيئاً عن أصله واسرته ، والقارئ نفسه لا يعرف أن اخلاق اسرته مشكوك فيها إلا في نهاية الكتاب . ولكنك لتساءل : هل هذا الرجل على الجملة ، أقل شرفاً من أولئك الموظفين في المدن الصغيرة ؟ ومن أولئك الملاكين في القرى ، أعني من أولئك الناس الذين كان يعقد معهم صفقاته التجارية المنحطة ؟ وثمت طائفة من الشخصيات في هذه الرواية لا تنسى ، شخصية الجنتلمان الكسول ، العاطفي المسترخي استرخاء عذبا ، ثم شخصية الجار القاسي الخشن الذي يدافع عن مصالحه بعنف وحدة ، ثم المرأة العجوز الغبية المكاراة في آن واحد ، ثم شخصية المتلاف الغشاش الذي يحب المسايغة ، ثم شخصية البخيل الخسيس إلى درجة مفاجئة . وإن صاحبنا تشتشيكوف ليعامل كلاً من

هؤلاء الناس على حسب طبعه ، فطرافة في مداورتهم تختلف باختلاف كل منهم ، وترى الحديث الذي يدور بينه وبينهم جديداً في كل مرة ، تحس له في كل مرة مذاقاً جديداً إلا أن أحداً من هؤلاء لا يستطيع بثوبة من الشرف أن يرفض العرض المربح المشبوه الذي يتقدم به هذا المحتال . أن جميع هؤلاء الناس غارقون في حمأة المصالح المادية ، أن جميع هؤلاء الاحياء نفوس ميتة . وأن هذه الرمزية التي تكشفت بعد ذلك لجوجول لم تكن حاضرة في ذهنه حين بدأ كتابة كتابه وحين أرسل إلى بوشكين (سيكون هذا الكتاب مضحكاً جداً) ، أي أن بوشكين بعد أن قرأ الفصول الاولى من هذا الكتاب ، لم يسعه إلا أن يصرخ «يا إلهي ما أبأس بلادنا ، وما أبأس هذه الروسية» وأجمع التقديميون والرجعيون كلاهما على أن يروا في هذه القصة المرححة تصويراً مؤلماً للواقع الروسي . وهل يجوز أن نفترض أن مؤلف هذا الكتاب الذي ينطوي على نقد قاس للرق كان من أشياء الرق ، وأنه لم يفكر إلا في دراسة الطباع ، وتصوير مواقف هزلية ، وأن قدرته على الملاحظة النافذة ، وموهبة في التصوير الكاريكاتوري هما اللتان فرضا على كتابه ، بالرغم منه ، التحجاً لم يكن قد تنبأ به ، مهما يكن من أمر فإن هذا الالتباس هو أحد أسباب النزاع الداخلي الذي سيهز نفس جوجول ، وهو نزاع داخلي توجه في هذا الجزء الاول من الكتاب ، حيث ترى من حين إلى حين دفعات عاطفية فجائية يتغنى فيها جوجول بايمانه بالشعب الروسي ، وبمستقبل روسيا التي يرى أنها ستجري في طريق التقدم جرياً سريعاً جباراً أمام أعين أوروبا المشدوهة . وأنه في منفاه الذي أراده ليزداد ايمانه بروسيا من بعيد . لقد اتهموه بأنه سود وجه وطنه ، ولكن لئن كان الجزء الاول من قصيدته هو الجحيم ، فبعد الجحيم يأتي المطهر حيث يستغفر تشتشيكوف عن ذنبه ويتوب عن أثمه ، وبعد المطهر تأتي الجنة التي تكشف للعالم عن المواهب الرائعة التي أوتيتها الروح الروسية . ولكن لئن كان جوجول يدرك على الفور العيوب والأشياء المضحكة ، فإنه عاجز عن أن يصور الطباع الفاضلة تصويراً حياً .

وبين عام ١٨٤٣ وعام ١٨٤٥ كتب الجزء الثاني من «النفوس الميتة» ثم مزقه ، ثم عاد يكتبه (في بضعة الفصول التي حفظت مسوداتها تلاحظ أن الصفحات الجميلة هي الصفحات التي ما يزال يسيطر عليها النقد) ، ولم يلاحظ أن العائق الذي يحول بينه وبين ما يريد كتابته انما هو طبيعة موهبته ، فعز ذلك إلى سوء روحه ، وخبت نفسه ، فهو فيما يرى أنقص من أن يخلق شخصاً كاملاً . وهالته الرسالة التي عهد إليه بها الله ليقود شعبه ، هذه الرسالة التي سيتحقق في تحقيقها ، فشعر بالحاجة إلى أن يعترف على رؤوس الأشهاد ، وأخذ يستجد وهو يئن ويتأوه . وفي عام ١٨٤٦ ظهر كتابه مختارات من رسائله إلى أصدقائي ، وكان لهذا الكتاب ضجة كبيرة ، فقد كشف بها جوجول عن حقيقة عقائده ، فظهر أنه محافظ وإنه صوفي ، وتكلم فيها بلهجة النبي داعياً روسيا إلى تجديد حياتها وإيمانها ، وإلى أن تساعد على أن يجدد هو نفسه حياته إيمانه . وسافر إلى «الأرض المقدسة» آملاً أن يجد فيها الوحي ، فما زادت الرحلة إلا شعوراً «بجفاف قلبه» فقرر فجأة أن يعود إلى روسيا ، حتى يراها رؤية أعمق ، ويصورها تصويراً أصديق . وفي موسكو اتصل به أحد الرهبان وزاد في قلقه واضطرابه ، إذ أخذ يحذره عن أن المطامع الأدبية أمر باطل لا قيمة له . وأخذ الفنان والمتقشف يتنازعان قلب جوجول . حتى إذا أتى يوم ١٢ فبراير من عام ١٨٥٢ حرق جوجول كل ما كان قد كتبه من الجزء الثاني من «النفوس الميتة» ، وأرهبه التقشف والصيام فمات بعد ذلك بأيام .

من جوجول إلى دوستوفسكي - ظلت «النفوس الميتة» تحدد ملامح الرواية الروسية مدة طويلة إنها واقعية قبل كل شيء ، وهي تصف الأفراد ، ولكنها تصف أكثر من ذلك البيئة التي يمثلها الأفراد وينتج عن ذلك بصورة إرادية أو غير إرادية (وهذه حالة جوجول) أن المؤلف يتميز في المسائل الاجتماعية والسياسية . فما من أثر أدبي إلا ويحاول النقاد أن يبحثوا عن «اتجاهه» . وإذا كان ثمة اتجاه عند مسرح اكزاكوف (١٧٩١ - ١٨٥٩) الذي كان صديق

جوجول ، أبأ السلافيين كليهما ، فهذا الاتجاه هو اتجاه المحافظة ، ومحبة الماضي ، والحنين إليه . إن هذا الانسان الفذ الذي كان يعبد الطبيعة والحيوانات ، انصرف في شيخوخته إلى الكتابة ، وجعل من نفسه كاتباً ليقص علينا ذكرياته في «ذكريات صائد سمك» و«ذكريات صياد» ، ثم اعمل عين هذه القدرة على الملاحظة في وصف البشر ، فكتب لنا «أخبار عائلته» ، وسنوات طفولته الحفيد باجروف» ، وهما كتابان جميلان لطيفان يصوران لنا بيئة العائلية في بساطة محببة . وإن جونتشاروف ، هما أيضاً ، رجلان هادئان سلميَّان فنانان قبل كل شيء ، ولكنهما لما أوتيا من قدرة على جعل الأشياء التي يرونها حية أمام أعين الناظرين ، آثار النفوس أضرماها أكثر مما كان يتمنيان .

ولد جونتشاروف عام ١٨١٢ في سمبرسك ، وترعرع في واحدة من تلك المزارع الناعمة المشرفة التي صوّرها ، فكانت وجبات الطعام عمله الأكبر فيها ، وكانت الأيام تشبه الأيام وقد ظل طيلة حياته يحب الرخاء الهادئ ولاحتوي حياته ، كموظف إلا على حادث واحد غير متوقع (لقد ختم أعماله كموظف في وظيفة مراقب ، وياشر وظيفته هذه في اعتدال) ، وهو أنه اشترك في تلك الرحلة الطويلة (رحلة فريجات بالاس) حول افريقيا وآسيا ، وقص هذه الرحلة كملاحظ سطحي فكه . وقد مات عام ١٨٩١ عجوزاً عازباً .

وكان لايبالي أمور السياسة ، ولا يعنى بمسائل الدين حتى أن ذلك الحدث العظيم الذي تم في عصره ، وهو الغاء الرق ، لم يؤثر فيه أي تأثير . وكان الأدب هواه الأعظم ، وكانت أجمل ساعاته هي تلك التي كان ينصرف فيها إلى صقل رواياته الثلاث على مهل ، «حكاية عادية» (١٨٤٧) «أوبلدموف» (١٨٥٩) ، «الوادي» (١٨٦٩) ، وفي هذه الروايات نقل لنا ملاحظاته على محيطه وعلى نفسه ، هذه الملاحظات التي كان يخزنها يوماً بعد يوم . وإنها «لحكاية عادية فعلاً» حكاية ذلك الشاب الذي يصل إلى العاصمة كبطل من أبطال بالزاك ولعله هو المؤلف نفسه ، فيحتل منصباً عالياً ، ويحظى بمجد أدبي ، ويقع في حب عظيم ، ثم ينتقل من خيبة ظن إلى خيبة ظن أخرى

لينتهي أخيراً إلى رؤية نفسه على حقيقتها ، وإلى قبول نفسه على حقيقتها أي على أنه امرؤ عاجز وأناثي . وإنك ببعض ملامح آرويف هذا في الرواية الثانية «أدبلدوموف» إلا أنه أوبلد موف أكرم فطرة ، ويتمتع بمواهب حقيقية ،

أراد أن يتحرر من أسر المزرعة العائلية ، وأن يتقف ويعمل ولكن خور العزيمة كان أقوى منه ، فكان يتمدد طيلة يومه على أريكة ، يحلم بما سيعمله في المستقبل ويحاول صديق له نشيط ، وامرأة شجاعة ، أن ينقذه ، إلا أن أوبلدوموف عاجز عن مواصلة المحاولة للنهوض بنفسه فيستسلم أخيراً إلى مرتبة خلق نموذج هو من أشهر نماذج الرواية الروسية ، صوّر به أكبر آفة قومية ، وهي هذا الخدر الشرقي الذي يحطم كثيراً من الاندفاعات النبيلة الكريمة . وقد احتفظ الروس بكلمة «اوبلوموفتشينا» يطلقونها على هذه الآفة التي أطلق عليها أوبلوموف نفسه هذا الاسم ، بكثير من المראה .

أما الرواية الثالثة ، أعني «الوادي» ، فإن طول العقدة فيها لا يكفر عنه تحليل نفسي قوي .

لقد كان جونتشاروف عاجزاً عن أن ينفخ حياة في شخصيات لم يضع فيها شيئاً من نفسه . وفي هذا يفوقه تورجنيف .

وإن في تورجنيف ، كما كان في جونتشاروف ، شيئاً من اوبلوموف ، أعني «روحاً نسوية في هيكل جبار» على حد تعبير ألفونس دوديه ، إلا أن هذه الرخاوة كانت تزول عنده أيضاً حين يكون الأمر أمر خلق أثر فني .

ولد في أبريل عام ١٨١٨ ، من عائلة ذات أصل تتري بعيد ، وكان أبوه امرأ ضعيفاً ، وكانت أمه شرسة عتية ، وكان من قسوتها في معاملته الخدم ما جعل تورجنيف يكره العبودية كرهاً أشبه بالذعر . وقد نشأ في مزارع سياسكوه الغنية ، وأحب الطبيعة والشعر منذ طفولته .

وقد درس الفلسفة في روسيا أولاً ، وفي برلين بعد ذلك . واتصل بالشبيبة المتحررة . ولما عاد إلى بطرسبرج أخذ يرتاد الصالونات ، وينظم أشعاراً ويؤلف مسرحيات صغيرة ، وفي عام ١٨٤٧ كتب «كور كالييتش» وهي القصة الأولى من

«حكايات الصياد» ، وذلك حين عرف بولين فيارود ، وأحبها حباً اضطر إلى أن يصبح صداقة . ومنذ ذلك الحين عاش هذا العازب الذي يمقت الوحدة ، في أسرة فياردو حيث كان يتوهم أنه يعيش حياة عائلية ، فتبع هذه الأسرة في أسفارها خلال أوروبا ، وكان يرجع في كل صيف إلى سياسكوه . واستقر معها أخيراً في باد عام ١٨٦٤ ، ثم في باريس بعد عام ٨١٧١ ، وهناك أصبح صديق الأخوين جونكور وصديق موباسان ، والفونس دودية ، وجورج صاند ، وخاصة فلوبر ، وكان دائم التردد على مطعم ماينمبي . وبما أوتي من سحر بيان وعذوبة حديث ، حاول أن يجذب باريس بروسيا وأدبها وكان مع ذلك يتألم من أنه فقد اتصاله ببلاده ، وقام ما قام بينه وبين الشبيبة الروسية من سوء تفاهم . ومات في بوجيفال ، عام ١٨٨٣ ، بعد أن عانى آلاماً مبرحة خلال شهور طويلة ، وظل أميناً للفن إلى آخر لحظة من حياته ، فكان أثناء تلك الفترة من الآلام يقرض آخر «قصائده النثرية» ، بعد النجاح الواسع الذي أصابته «حكايات صياد» ، عام ١٨٥٢ أصبح تورجنيف روائياً فحسب وان القصص التي تدور حول الفلاحين كانت رائجة يوم ذلك في أوروبا كلها ، ولم تكن قد انقطعت خطوتها لدى الشعب الروسي منذ جوجول ، فإن فلاد يميرداهل كان قد استعمل في هذا النوع من القصص معرفته باللغة الشعبية ، وجريجوروفتش (١٨٢٢-٩٩) كان قد نشر عام ١٨٤٦ «القرية» ، وعام ١٨٤٧ «أنطون العاشر» اللتين أعقبها «الصيادون» «المهاجرون» ، وبلنسكي كان قد حياً بحرارة ، هذه الصور التي تمثل العادات

الريفية دون أن يرى ما كان فيها من عاطفية واصطناع .

ولكن ما من أثر يروي حياة الفلاحين ، لافي روسيا ولا في الخارج ، قد بلغ ما بلغته «حكايات صياد» من بساطة ومن شعر في آن واحد . الصياد هو تورجنيف يمشي خلال الغابات والحقول فيلقى فلاحين ، ويشهد سوقاً ، ويحضر دفناً ويلتجئ إلى عزة . . . فإذا روسيا الأقاليم كلها تتفتح أمامك ، وإذا أنت أمام أقوى وأبلغ مهاجم للعبودية ، لا يستعمل في هجومه الكلام . . . كان تورجنيف يذكر تأثير كتابه في الرأي العام وفي الامبراطور نفسه ، على أنه أعظم

مجد أصابه . انه لم يخف ما في الفلاح (الموجيل) من نقائص وعيوب إلا أنه أظهر أيضاً ما يتحل به من ذكاء . وحس سليم ، وغنى في الحياة الروحية ، وأظهر ما في الرق من قسوة ووحشية ، ولم يزعم أن هؤلاء السادة الذين كانوا يجلدون الفلاح بالسوط ويزجونه وينقلونه من مكان إلى مكان حسبما تملي عليهم نزواتهم ، إنما كانوا شياطين ، ولكنه أظهر أن الرق الذي يؤمن لهم الرخاء منذ قديم الأزمان ، قد قتل فيهم الاحساس بالأخوة الانسانية . لقد أوتي تورجنيف موهبة رائعة ، فإذا هو يرسم لك ببضعة أسطر نماذج لاتنسى من الأفندية والفلاحين ويدير لسان كل نموذج من هذه النماذج بلغته الخاصة وان قصته الفكهة أحياناً الحزينة غالباً ، تجري في إطار من الأوصاف تجتمع لها الدقة في معرفة الصيد بالنباتات والقوة في خيال الشاعر ، حرارة ثقيلة في الغابات ، أصبح مضطرب في الخريف ، روعة شروق الشمس وغروبها فوق أعقة السهل الناعمة ، ليالي تتلألأ فيها النجوم في مراعي بيجين ، حيث نرى الأولاد الذين يرعون الخيول يحسون من حولهم أرواحاً خبيثة .

وأعقب الحكايات سلسلة من الروايات الكبيرة . ففي عام ١٨٥٦ ظهرت رواية «رودين» ، ورودين هو المهملت الروسي ، وكان قد ظهر هذا النموذج قبل ذلك في إحدى «حكايات صياد» ، وسنراه يعود إلى الظهور مختلف الوجوه في جميع آثار تورجنيف ، إنسان ذكي كريم النيات ، لكن دون إرادة عاجز عن العمل ، بل حتى عن الهوى الحقيقي . وفي مقابل ذلك نرى البنات اللواتي يجلي تورجنيف في وصفهن بعضهن يفيض رقة وحناناً ، وبعضهن يفيض حيوية وقوة ونشاطاً ، لايتراجعن أمام أي شيء متى وهبن قلوبهن . وهناك موضوع يتناوله تورجنيف بعد ذلك كثيراً ويظهر في هذه الرواية الأولى ، ألا وهو التعارض بين جيلين ، جيل الآباء الذين يعيشون في الأرياف حياة تقليدية ، بلا مثل أعلى كبير ، وجيل الأبناء الذين ينفصلون عن بيئتهم بالثقافة الأجنبية ، ويسكرون بآراء وأقوال لاجدوى فيها .

أما «عش أسيا» (١٨٥٩) فهو لاي زيد على أنه رواية غرام ، في إطار قديم لطيف ، إلا أن رواية تورجنيف التي عنوانها «الغداة» هي التي يعود فيها

تورجنيف إلى ما يقض مضجعه من البحث عن الانسان القوي الذي تحتاج إليه العصور الجديدة القريبة (ان الغاء الرق القريب) ، فهذا هو لا يجد هذا الانسان القوي لا لدى الفنان الفاتن الخفيف ، ولا لدى المثقف ذي الطبع الخجول ، وإنما يجده لدى البلغاري انساروف ، ذي الجسم المريض ، والروح الرجولية ، هذا الانسان الذي ينذر حياته لتحرير بلاده ويموت قبل أن يباشر رسالته ، فنحو هذا الانسان إنما يتجه الانسان إنما يتجه حب هيلين الحارة التي كانت تحتق في جو تملأه الأنانية . فهل كان من المستحيل إذن أن يوجد في روسيا الرجل الشجاع القوي ؟ وعلى استياء الشبيبة الروسية يردّ تورجنيف بروايته «الآباء والأبناء» ، حيث يتحاشى كعادته أن يتحزب لأحد الجيلين ، القديم والجديد ، فإلى الآباء ، في أسرة ارتستقراطية ، يسند تورجنيف رهاقة العادات والعواطف ، والاحساس بالجمال ويسند إليهم ، في أسرة أدنى من ذلك ، صلابة التقاليد الأخلاقية والدينية التي عرفت بها روسيا القديمة . أما الأبناء فنرى بينهم ضعيفاً هو آرКАД ، وهو شاب ينعم بقلب ممتاز ، إلا أنه ما إن تنقضي حماسة الشباب وصبواتها الكريمة ، حتى يواصل عين الحياة التي كان يحياها أبوه ، إلا أن «العدمي» بازاروف من طينة أخرى ، فهو يحو الماضي كله ، وقبح ، لايساهل ولا يلين ، مادي ، في الفلسفة والحب يخضع كل أمر من الأمور للتجربة العلمية ، ينكر الفن والشعر ، ونحن نحزر أن يكون في السياسة من الدعاة إلى الثورة الشاملة إلا أنه مهما يكن قوياً ، فإن الحياة تقتصر عليه ، يزعزع الحب أولاً ، وتقتله بعد ذلك حمى صاعقة وقد كان لهذه الرواية صدى هائل لدى الشبيبة المثقفة ، فأخذت على المؤلف هذه الخاتمة المتشائمة ، وهاجمته هجوماً عنيفاً واتهمته ، خطأ بأن تحيز ضد بازاروف ، والحقيقة أن التعلق بالماضي ، والصبوة إلى المستقبل ، وقلق الدقيقة الحافزة كل ذلك قد اجتمع في نفس المؤلف كما اجتمع في هذه الرواية ، والرواية هي في الوقت نفسه وثيقة تصور ذلك العصر ، وأثر فني خالد الموضوعية .

واستاء تورجنيف من سوء الفهم هذا العام ، فهاجم الرجعيين والتحرريين جميعاً ، هاجم دعاة السلافية وأنصار الغرب معاً هاجم الآباء والأبناء ، وذلك في

قصته «دخان» (١٨٦٧) ، وهي تصوير جبار ملّون حيّ للبيئة الروسية في باد ، ولناقشاتها الأدبية العقيمة . فكل ذلك إنما هو دخان ، ككل شيء روسي وربما ككل شيء في الحياة .

ومع ذلك فإن الخاتمة تشرق بنصيحة وهي : ان المرء ، يصمت ، في المكان الذي يكون فيه نافعا . والى هذه الخاتمة تنتهي روايته «الأرض البكر» (١٨٧٦) الا انها اثر ضعيف بالنسبة الى «دخان» وهي تكشف عن جهل المؤلف بالشبيبة الثورية .

ولم يكن تورجنيف قد اهمل فن الاقصوصة ابدا . وفي الاقصوصة تتجلى مزايا القصد والاسلوب التي يتجلى بها تورجنيف وفي عام ١٨٧٣ أضاف الى «حكايات صياد» مجموعة «البقايا الحية» ، ثم اقتصر بعد ذلك على آثار صغيرة جدا هي «القصائد النثرية» يعبر فيها ، بكلام قليل عن فلسفة ، ان البشر ليضطربون في الحياة في غير جدوى ، والطبيعة تنظر اليهم لاتبالي . . ولا يبقى على الانسان ، حين يفهم ان آماله عبث باطل ، الا ان ينصرف ، بتواضع ، الى عمل مفيد ، أو أن يلجأ الى هدوء الفن ويعتصم به .

هدوء الفنان هذا الذي اعتصم به تورجنيف واعتصم به بوشكين ، ماكان يروق للمعاصرين وكانوا يؤثرون عليه الكفاح والنضال . وكان الجمهور يستاء من موضوعية تورجنيف ، وماكان اسهل عليه ان يصنف الكتاب في زمرتين ، زمرة التقدميين وزمرة الرجعيين ، وبعد الغاء الرق ظلت هنالك أمور كثيرة يتناولها التحرريون بالنقد وابداء السخط ، فكان يؤس الفلاح ، وتفسخ الموظفين ورجال الاعمال ، وفقدان الاصلاح السياسي ، كان كل ذلك يمدّ المستهينين بمادة مثيرة واسعة ، واول هؤلاء المتهمين ، سالتيكوف (١٨٢٦-٨٩) الذي كان يكتب في أول الأمر باسم مستعار هوشتشدرين ، كان سالتيكوف هذا موظفا رضيا خلال مدة طويلة ، إلا مدة قضاها في فياتكا مغضوبا عليه حتى اذا وافى عام ١٨٦٨ استقال من وظيفته وانصرف مع فكارازوف الى ادارة «حوليات الوطن» ، وفي فياتكا كان قد كتب «وجوه ريفية» ، ثم اتبعها «بصفحات هجائية

ثرية» ، و«حكايات بريئة» و«قصة مدينة» و«اسرة جولوفيف» وسادة طشقند هؤلاء ، و«يوميات ريفي» الخ . وفي هجائه القارص اللاذع الذي يكوي ويلهب ، والذي شبه بهجاء سريفت ، يستعرض كل طبقات المجتمع ، ولا يرحم منها الا طبقة الفلاحين . ففي كتابه «اسرة جولوفيف» يرسم لك صورة قائمة لاسرة من النبلاء ورثت عبثا ثقيلا من الفساد والرزيلة والكسل . وترى في هذه الرواية صورة رائعة لامرأة عجوز ، نجيلة خبيثة ، كانت تسيطر على حياتها كلها فكرة العائلة ، بمعنى انها حفظت ثروة اولادها ولكنها لم تكن يوما بالاولاد انفسهم ، واشأم من هذا الوجه ايضا وجه المنافق يوروشكا ، اصفر ابناء العجوز وهو ولد متفسخ منحل اجهز على العائلة وأتم خرابها .

وتشتمل روايات ساليتكوف ، عدا من عليهم من غير المتلاثمين ، تشتمل على نماذج كثيرة لأناس عرفوا كيف يتلاءمون مع الظروف الجديدة وكيف يستفيدون منها ويستغلونها . فهو يرسم لنا موظفين من كل الدرجات يعرفون كيف يسلكون السبيل الى الاعتناء والاثراء بفضل الوظيفة ، ولا سيما في الاقاليم البعيدة التي هي اشبه بمستعمرات تحت رحمة المستعمرين . (سادة طشقند هؤلاء) ، وهو يرسم لنا الاصولي الذي يعرف كيف ينجح فاذا هو رجل عظيم ، حاكم في الاقاليم أو وزير لا ضمير له . ليست روسيا كلها طشقند واسعة «اهلها شياه مستعدة في كل فصل أن تستسلم للجزار» وهاهو صاحبنا في قصة مدينة ، مدينة جلوبوف ، يرى قصة روسيا كلها (يُقنّع المؤلف القياصرة فيتحدث عن حكام) ، حيث الشعب خاضع مستسلم منقاد .

ان هذه الطريقة في الاشارة والتورية ، بالاضافة الى صعوبات اللغة القاسية الغامضة التي يستعملها ساليتكوف ، كثيرا ماتجعل الروسيين الحاليين انفسهم يعزّ عليهم فهم آثار هذا المؤلف ، وقد عتقت اثاره اكثر من غيرها لانها قلما ترتفع الى أعلى من مستوى تصوير عصر بعينه ، إلا أنها من أجل معرفة هذا العصر تعدّ مصورا تاريخيا لا نظير له . وملئته بمثل هذه الاشارات والتوريات ايضا رواية رشتينكوف «اسرة بودلييوفستي» (١٨٦٢) التي ترسم صورة للعادات الفلاحية

القاسية وتجعلك تتخيل مدى البؤس المادي والاخلاقي الذي تعانيه روسيا بأسرها ، وكذلك رواية «المعمل ؟» لمؤلفها تشرينشفسكي (١٨٦٤) التي أصابت نجاحا عظيما والتي تبدو اليوم متصنعة ، وفيها يصور لنا المؤلف طالبين بلغا من الكمال حدا خارقا للمألوف وجنتلما نا تولستويا قبل تولستوي ، يرتضي ان يصبح سائقا وعاملا لجرّ المراكب في الفولجا .

ولا يقل الكتاب المحافظون واقعية عن اولئك ، ولكنهم يستمدون من الواقع نتائج أخرى . نذكر من هؤلاء بيزمسكي (١٨٢٠ - ٨١) جمع بواسطة رواية «ألف نفس» أصوات اليمين واليسار وهي قصة مغامر لا ضمير له ولا وجدان ، إلا أن رواية «البحر المضطرب» التي يصور فيها المجتمع الروسي وقد شوشه الغاء الرق ، قد حشرته نهائيا في عداد الرجعيين .

وهناك لزكوف (١٨٣١ - ٩٥) ، اندي ظلت مواهبه مغمورة خلال مدة طويلة بسبب ميوله ، ومع ذلك فان جوركي قدّرهما واحترمهما الى حد كبير . وكان لزكوف فقيرا فلم يستطع ان يحصل ثقافة مدرسية عالية وكان يكسب رزقه من التجارة ، واثاح له ذلك أن يطوف في انحاء روسيا . وفي عام ١٨٦٢ كتب مقالا تناول فيه الطلاب الثوريين ، فكرهه هؤلاء ونقموا عليه ، وجاءت روايته «لا مخرج» و«حتى السكين» فزادتا هذا الكره وهذه النقمة ، اذ كانتا موجّهتين ضد الاشتراكية ، وكانتا مملوءتين بمغامز شخصية مؤذية . ومن حسن الحظ أن هذه الآثار النضالية ليست كل آثار لزكوف . فله آثار أخرى لا شأن لها بالكفاح ، نذكر منها «رجال الكنيسة» وهي صورة وحيدة في الأدب الروسي ترسم لنا الجوا الاكليريكي ، فترى فيها رهبا نا كراما نبلاء كما ترى كهنة مضحكين سخفاء .

بطل الكتاب رجل اسمه توبيروزوف ، ملتهب ايمانا ومحبة ، يحارب عداوة المثقفين ، ويحارب في الوقت نفسه سخافة رؤسائه ، ثم يغلب على امره . وهناك اثار أخرى يصور فيها لزكوف بيئات أخرى راها أيضا عن كتب ، كبيثة تجار الاقاليم في روايته «ليدي مكبت مقاطعة متسنك» ، وكبيثة قدامى المؤمنين في روايته «الملاك المختوم» ، ان في هذه الأقاصيص القصيرة لفنا كثيرا ، وان في لغتها

لكثيرا من الصقل والصفاء والعناية .

ونذكر ملينكوف (١٨١٩ - ٨٣) الذي انتحل اسما مستعارا هو بتشرسكي ، وهو يقترب من لسكوف بالموضوعات التي يعالجها ، ولكنه دونه قيمة كانسان وككاتب . وكان استاذا في ثانوية برم ، ثم في ينجني نوفجورود ، فعنى بالاعادات المحلية ، وخاصة عادات قدامى المواطنين الذين يكثرون وراء الفولجا ، وقد اتهم بانه استغل ثقتهم به واطمئنانهم اليه ليقدم لرجال الادارة الذين ترك التعليم وانضم اليهم ، اسلحة ضدهم وقد خصص لهم روايتين طويلتين - «في الغابات» (١٨٧٢) «وفي الجبال» (١٨٧٥ - ٨٠) واصفا عاداتهم التي ظلت ثابتة منذ الانشقاق ، والحياة في قراهم وصوامعهم المختبئة في اعماق الغابات ، والاشكال الصوفية التي يتخذها في بعض الأحيان الايمان الشخصي لدى الكهنة ، ومزايا الاخلاص والصدق في العمل .

التي يتمتعون بها ، ولكنه وصف إلى جانب ذلك ضيق تفكيرهم وافراطهم في القوة في الحياة العائلية . إن هذه اللوحات الملونة تعوزها الحرارة التي كان يمكن أن تجعلها قوية مؤثرة .

دوستوفسكي - ينسب المحافظون اليهم ، وأن ايمانه يتفق في الواقع مع آرائهم إلا أن عبقريته ، قد جعلته ، بالرغم منه ، يحطم جميع الأطر ، ورفعت مؤلفاته إلى مستوى التراث المشترك للانسانية كلها .

ولد فيدور ميخائيلوفتش دوستوفسكي بموسكو عام ١٨٢١ ، وكان ابوه طيباً ينتسب إلى صغار النبلاء ويملك ثروة تافهة ، وكان قاسياً بخيلاً تقياً . وقد شب دوستوفسكي وترعرع في المدينة ، خلافاً لمعظم الكتاب الروس ، وفي المدينة انما ستدور رواياته . ولقد كان لموت أمه ولموت بوشكين أثراً عميقة في نفسه ، وسبب ذلك آلامه الكبرى في سنيته الأولى . وكان عمره سبعة عشر عاماً ، وكان يدرس في كلية الهندسة ببطرسبرج دراسات لم تكن ثروته حين جاءه نعي أبيه الذي قتله الفلاحون لقسوته في معاملتهم ، فألقاه هذا النبأ إلى نوبة صرعة ، وكان منذ طفولته يعاني نوبات من الغم . ولم يبق ضابطاً إلا

مدة سنة واحدة ، وقرر أن يكتب . وفي عام ١٨٤٤ أصدر روايته الاولى «الناس الفقراء» التي تأثر فيها بـ «معطف» جوجول ، فنالت استحسان بيلنسكي ونكرازوف وحماستها . إلا أن الاقاصيص التي اعقبت هذه الرواية قد كتبت بسرعة مفرطة . وقد اجتذبت الآراء التحررية التي سيتألب عليها بعد ذلك ، فانضم إلى جماعة بتراشفكي التي لم تكن بذات أذى أو خطر ، فاعتقل معه سنة ١٨٤٩ وحكم عليه بالموت . ووقف أمام ركيزة الاعدام ينتظر الموت القريب ، وعاش دقائق عنيفة سيذكرها بعد ذلك في كتبه غير مرة ، وفيما هو كذلك إذا بالعفو الامبراطوري يصل بعد أن تأخر بمكيدة قاسية ، وكان عفواً جزئياً ، إذ يقرر أن يستبدل بالاعدام الحبس في معتقل أومسك أما كيف كانت هذه السنين الأربع التي قضاها في المعتقل فهذا ما تحسه إذ تقرأ روايته «ذكريات من منزل الأموات» ، رغم أن دوستوفسكي لم يتلفظ بشكوى واحدة ، لا في هذا الكتاب ولا في حياته . وإنما هو يقتصر في هذا الكتاب على أن يصف لك ببساطة ، الحياة النظيفة التي يعيشها المعتقلون ، وأن يبحث بأخوة عن الشعلة الالهية لدى هؤلاء الافراد الساقطين . ولما خرج من المعتقل كانت صحته مهذمة . وخدم بعض الوقت ، كجندي بسيط ، في سيمينبالاتسك ، ثم أعيدت إليه رتبة الضابط ومنزلة النبالة ، ولكنه لم يحصل على حق الرجوع إلى روسيا إلا سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج في سبيريا أرملة مريضة غريبة الطباع ذات بدوات هي ماري عيسائيف . وما أن عاد إلى روسيا حتى ضمن له كتاباه «ذكريات من منزل الأموات» و«المستدلون المهانون» الشهرة وذوبع الصيت . وأنشأ مع أخيه ميشيل مجلة «الزمان» التي منعت بعد ذلك بقليل . وفي عام ١٨٦٢ قام برحلة أولى إلى الغرب . وفي عام ١٨٦٣ رحل إلى باريس ليلحق الطالبة بولين سوسلوف التي خانته قبل أن يدركها . ومع ذلك فقد سافر معها إلى المانيا وثم عاد إلى بطرسبرج ، ليوافه الوائس من الصعوبات . وتموت زوجته ويموت أخوه تاركاً له عبثاً من الديو وعبء عائلته أسرة . وعندئذ بدأ يعيش حياة أعمال شاقة فعلاً فكان يتقاضى من الناشر ، مقدماً ثمن الكتاب

الذي لم يكد يشرع فيه ، وكانت المهلة المحددة لانجاز الكتاب تنصّرَ بسرعة فتقضى مضجعة وتلهب ظهره ، فكان يعمل كالمحموم . واستعجالاً للعمل ، استأجر شابة تكتب على آلة اختزال ، وهذه الشابة هي آناستكين التي أصبحت زوجته عام ١٨٦٧ . لقد أعجبت به هذه الفتاة دون أن تفهمه وأحاطته بكثير من الرقة والحنان والاخلاص . وقضيا معاً عدة سنين في ألمانيا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، وكانت هذه السنين مليئة بالاحزان وكان يزيد هذه الاحزان فداحة ما تعلق به دوستوفسكي من هوى المقامرة الذي كان يدفعه أحياناً إلى الروليت دفعاً لاحيلة له فيه ، ولا سبيل إلى مقاومته . وفي عام ١٨٧١ استقرت هذه الاسرة التي انجبت عدة أولاد لم يعيش منهم إلا اثنان استقرت في بطرسبرج ، وتحسنت احوالها المالية حين عزمّت مدام دوستوفسكي على أن تنشر هي نفسها مؤلفات زوجها . ولكي يعبر دوستوفسكي عن آرائه السياسية والدينية - وهي شيء واحد - تعبيراً مباشراً أكثر من الرواية أخذ ينشر «يوميّات كاتب» على شكل دوري . وفي عام ١٨٨٠ خرج من عزلته ليلقى في حفلة تدشين تمثال بوشكين خطاباً استقبل بحماسة عظيمة . ولكن عن الشباب ، ومتاعب العمل المفرطة ، وآلام الامراض (لقد اضيف إلى مرض الصرعة مرض الزلال) ، فقتله في يناير من عام ١٨٨١ نزيّف رئوي شديد . . . ومات مسيحياً .

إن الروايات الكبرى التي ألفها دوستوفسكي «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦) و«المقامر» و«الأبله» (١٨٦٨) ، و«الزوج الأبدي» (١٨٦٩) و«الشياطين» (١٨٧١) ، و«المراهق» (١٨٧٢) و«الاخوة رامازوف» (رواية غير تامة ظهر الجزء آن الأولان منها سنة ١٨٧٧) لحتاج كل منها إلى دراسة مفصلة ، ولا نستطيع هنا إلا أن نستخرج ملاحظاتها الاساسية .

إن العقدة المركزية في هذه الروايات - وهي عقدة بسيطة إلى حد ما - تشتمل دائماً تقريباً على جريمة . فرواية «الجريمة والعقاب» تصور لنا طالباً طموحاً يقتل امرأة عبجوزاً ليسرقها ، ثم ينتهي بأن يشي بنفسه ويعترف بجريمته . و

«الأبله» رجل طيب في أعماقه ، يختار بين أمرأتين : امرأة يحبها وامرأة محتاجة إلى أن ينقذها فيختار أن يتزوج الثانية . وهي ترفض تضحيته ، وتمضي تلحق برجل آخر يقتلها . ورواية «الشياطين» (أو «الموسوسون» بحسب الترجمة الفرنسية) تدخلنا إلى مؤامرة اشتراكية يشتهب في أحد اعضائها ويتهم بالخيانة ويقتل . ورواية «الاخوة كارامازوف» تروي لنا قصة خطأ قضائي مفرج ويمكن أن نفع في هذه الآثار على جميع عناصر الرواية البوليسية تقريباً : القدرة على الاحتفاظ ، إلى آخر الرواية بالسرا الذي يحمله أحد الشخص أو بضعة شخص ، والصدف الغريبة التي تجمع هؤلاء في مكان وزمان غير متوقعين ، وتراكم حوادث الموت الفظيعة ، وخاصة في الشياطين» ، وكمية من العقد الثانوية يتداخل بعضها في بعض ، أن دوستوفسكي يتمتع بقدرة على الخلق بلغت من القوة أن الأشخاص ينبعون نبعاً كأنما على غير إرادة منه ، ولا بد أن يجدوا لانفسهم مكاناً في الرواية ، فيراهم ، ويرينا اياهم ، يرسمهم ببضعة خطوط تفرض نفسها على الذاكرة فرضاً ، كتفاحة آدم التي في رقبة الأب كارامازوف . والمناظر قليلة في آثار دوستوفسكي ، وتكاد تكون كلها في المدينة وامكنة داخلية يوحى بها أكثر عما يصفها ، وهي دائماً على صلة مباشرة بحالة نفسية ، ذلك أن النفس الانسانية هي التي تعنيه وتستهويه وتملك عليه عقله . وهو أكثر موضوعية من تولستوى ، فلا يضع من نفسه في شخصه إلا ملامح متفرقة ، إلا أنه يعيش مع كل منهم ، ويتبعهم خطوة خطوة . ومن مستحدثاته التي أثرت في الرواية الحديثة تأثيراً كبيراً اهتمامه بدراسة شخصه في ساعات وفي مواقف لا شأن لها بعقدة الرواية وكذلك القيمة التي يسندھا إلى اللاشعور إلى القوى الغامضة التي قد تؤدي بكل انسان إلى أعمال غير منتظرة ، وخاصة بالجائحين والعصبيين الذين يؤثر تصويرهم والذين يعدون في معظمهم ، حالات مرضية ، فالأمير ميشكين مصاب بالصرعة وكذلك سمردياكوف الأول قديس والثاني شيطان . وكثير من شخصه أصحاب رؤى ، رؤى فظيعة لدى بعضهم من غير الطاهرين ، مهدثة مسكنة لدى اليوشا كارامازوف . ولا يعني دوستوفسكي بالحد الوسط .

(لقد رسم صوراً كاريكاتورية لا بطل تورجنيف ، ولتورجنيف نفسه في «المسوسين») وإنما يعني بالاشخاص القادرين على أعمال إجرامية ، وعلى أعمال رائعة . وهو يدرسهم دراسة تجريبية ، فيضعهم أمام الجريمة وأما الحب ، ويميز بين ثلاثة نماذج أساسية ، رجل الفكر الذي يغلب عليه العقل ، ورجل الهوى الجامح الذي تغلب عليه شهوات الجسد ، والرجل البسيط الصافي .

وقد حاول بعض الباحثين أن يعللوا سيطرة الجريمة على فكر دوستوفسكي بالكبت الفردي أو بخطيئة مخبأة . ولعل الأبسط من هذا أن نقول أن الفترة التي قضاها في المعتقل قد فرضت على فكره مسألة العلاقات بين المجرم وعمله (لقد استطاع أن يشاهد فقدان الندم وخز الضمير لدى المجرمين) ، ومسألة الجريمة وآثارها في النفس ، أما راسكولينكوف ، الطالب ، بطل «الجريمة والعقاب» فهو رجل فكر يؤدي به تفكيره إلى القتل ، فليس اجراماً في رأيه قتل كائن مضرّ هو هذه العجوز المرابية ، في سبيل تأمين امكانيات الحياة الخصبية لانسان فلذّ موهوب يشعر بوجوده في نفسه ، ليس من حق انسان كنيوتن أو نابليون أن يهلك . إلا أن صاحبنا ، وقد جبل من عقل دون أرادة لم يستطع أن يستفيد من جريمة وقد حطّمه سرّة . وعلى أن وخز الضمير ليس هو الذي يدفعه إلى أن يشي بنفسه ويعترف بجريمته ، فإنه يظل مقتنعاً بصحة الاستدلال العقلي الذي قاده إلى الجريمة ، وأنه ليحقر ضعف أرادته وخور نفسه . ولم يفهم قانون الحب والشفقة الذي اخترقه إلا في المعتقل ، إلى جانب حبيته المسكينة صوفيا . وأما ايفان كارامازوف ، الذكي جداً هو الآخر فإنه مقتنع ، هو الآخر ، بمبدأ أن كل شيء مباح ، إلا أنه عاجز عن العمل أكثر من راسكولينكوف ، فإن سمر دناكوف الذي سيقتل العجوز كارامازوف ، ولكن ايفان سيعرف أنه هو المسؤول عن ذلك .

وإن كل رواية من هذه الروايات تضع لنا ازاء هؤلاء الاشخاص العقليين شخصاً تغلب عليه شهوات الجسد ، فلا يستطيع إلى دفع اهوائه النجسة سبيلاً ، سفيدر يجايلوف في «الجريمة والعقاب» ، وروجين في «الأبله» ، أما

في «الأخوة كارامازوف» فهناك ديمتري الذي تتخذ سيطرة اللذة عليه طابعاً ، لأنه من طينة كريمة ، وهناك الأب كارامازوف الذي يبلغ أدنى درجات الحقارة . ومهما يكن من أمر ففي كل انسان تقوى غريزة الشهوة الدنيئة ، حتى أليوشا الملائكي يعرف أن فيه شيئاً من أسرة كارامازوف ، ولا يحتقر أباه . وأن الكائنات النقية ، تلك التي لا تنتمي إلى مملكة سودوم ، بل إلى مملكة سيدتنا مريم العذراء ، فإنها أكثر تواضعاً من أن تظن نفسها فوق النجسين ، أو فوق المجرمين ، فهي لا تشعر نحو هؤلاء بغير عاطفة الحب والأخوة ، فبينما نرى العقليين والشهوانيين أناساً انانيين على حد سواء ، نرى هؤلاء الانقياء يفيضون حباً ورحمة ، فهم يحبون البشر لأنهم يؤمنون بالله ، ويمثل دوستويفسكي هؤلاء بأطفال ونساء يمثلهم بصوفيا التي أصبحت مومسا لشدة تفانيها في سبيل اسرتها والتي ستلحق براسكولينكوف إلى المعتقل يمثلهم بداشا المستعدة للتفاني في سبيل ستافروجين ، بجروشنكا المستعدة للتفاني في سبيل دميتري ، ويمثلهم أخيراً برجال الأمير ميشكين ، الأبله الذي يدرك بالقلب مالن يستطيع أي عقلي أن يدركه بالتفكير والأب زوسيم ، وأليوشا كارامازوف ، الانسان اللطيف الرقيق . إن قانون الحب الذي يجسده هؤلاء الانقياء يسيطر على تفكير دوستويفسكي في الدين والسياسة .

وإن دوستويفسكي ليفسح في رواياته مجالاً كبيراً للمحادثات والمناقشات الفكرية التي تتخلل الحوادث على حساب الكمال الفني ، ولكنها تخلع على هذه الحوادث معناها العميق وتجعلنا نشعر بما في نفس المؤلف من ثنائية ، وربما يتخلج في قلبه من شكوك تضطره قوة خفية فيه إلى التعبير عنها ، ويحاول عقوله أن يفكر فيها ويحجب عليها . وأنه ليعلم أنه من أنصار الاوتوقراطية منذ عاد من سبيريا ، ففي كتابه «المسوسين» يهاجم الاشتراكية مهاجمة صريحة ، ولكننا نحسّ مع ذلك أن بقايا من ثبات الشباب ما زالت تعتمل في نفسه حتى لتتساءل اليس يلتجئ إلى الاوتوقراطية هرباً من الاغراء الثوري ، كما يلتجئ إلى الأرثوذكسية هرباً من الشك الديني . وفي رأيه أن هذين

المفهومين ، أعني الارثوذكسية والاتوقراطية ، مرتبطان أوثق الارتباط . أنه يشبه الاشتراكية بالاحاد فيأخذ عليها أنها لا تفكر إلا في الحياة المادية ، وإنها تهدم الحرية الفردية . أما الارثوذكسية فهي دين الحرية ، خلافاً للكاثوليكية التي هي دين عقيدة صلبة وتدرج في المراتب استعبدا الانسان ، مع أن المسيح جاء لتحرير الانسان . ويقول دوستوفسكي سيأتي يوم يقول فيه الشعب الروسي - الذي ينطق بلسان الله - كلمة للناس وأن دوستوفسكي ليختار أن يكون ارثوذكسيا حتى يكون هو والشعب الروسي شيئاً واحداً ، ولقد عرف دوستوفسكي اغراء الاحاد ، وعرف كيف يقرر مع كيريلوف «الموسمين» حريته الكاملة كإنسان أعلى ، بالانتحار ، ولكنه قد انقذ ، كشاتوف في هذه الرواية نفسها بالايمان بروسيا وهو . اليوشا قد «أراد الايمان» بالله ، ونفسه المعذبة ابداً قد استشعرت من بعيد رباطة جأش الأب زوسيم ، وحالات الوجد والنشوة التي عاناه اليوشا . إن طمأنينة النفس هذه إنما تكتسب بحب الله ، وحب الناس ، وبقبول العذاب والألم . ولو على غير استحقاق ، فلذلك ينعش النفس ويحييها من جديد وينهض بها . . إن في الشقاء لقداسة . وما لم يفهم الناس هذه الحقائق التي هي رسالة روسيا إلى العالم فسيظلون يخبطون في التناقض ، تتجاذبهم مغريات الجسد والفكر ، وغواية الجريمة ، وقوى الشر ، هذا العالم المعذب ، القلق ، المضطرب ، الذي تنقضه لنا روايات دوستوفسكي صوراً مؤلمة هائلة .

تولستوى - إن دوستوفسكي وتولستوى - وكلاهما روسي في أعماقه - يشتركان في أن كلاً منها يشعر بالحاجة الملحة الجامعة إلى إيجاد الحقيقة المخلصة المتقذة ، وإلى اعلانها للعالم ، ولكن ثمت مزاجان ولا موهبتان بينهما من الاختلاف والتعارض ما بين مزاج دوستوفسكي ومزاج تولستوى ، وما بين مواهب الأول ومواهب الثاني . حياة دوستوفسكي انقضت في محن فظيعة ، وحياة تولستوى انقضت هادئة رضية في الظاهر وكان دوستوفسكي يعمل كالمحموم ، وكان تولستوى يعمل على مهله . دوستوفسكي إنسان مريض ،

سريع التأثير عنيف الانفعال إلى أقصى حد ، وتولستوى يفيض صحة وقوة .
تسيطر على دوستوفسكي اهتزازات نفسية مضطربة ، واندفاعات لا علة لها
ولا ضابط ، ويسيطر على تولستوى المنطق والثبات . دوستوفسكي صوفي
رغم شكوكه ، وتولستوى يفكر تفكيراً استدلالياً ، رغم ازماته الدينية . يريد
دوستوفسكي أن يكون محافظاً ويريد تولستوى أن يكون مهدماً . كلا
الرجلين ملأ رواياته فلسفة ، إلا أن فلسفة دوستوفسكي تغوص في الأعماق
وتتردد ، وتناقش ، في حين يكفي تولستوى ببضعة افكار بسيطة جداً تغيرت
أثناء حياته ، وكان في كل مرة يقررهما في قناعة كاملة . كان الا جانب ميالين إلا
أن لا يروا روسيا إلا من خلال دوستوفسكي ، ولكنهم بدأوا يتعرفون فيها
الآن الحيوية القوية والمنطق الصامد اللذين يتصف بهما تولستوى .

وإن حياة تولستوى وآثاره لترتب على طبقات متعاقبة ، يقف عند أحدها
حين يجد تعليلاً للحياة يسمح له بالحياة والخلق ، ثم تعقب ذلك فترة قلق
وبحث ينتقل منها إلى الطبقة الاعلى . ولد الكونت ليون نيكولا ثفتش في
الثامن والعشرين من اغسطس عام ١٨٢٨ في ياسنايا بوليانا التابعة لحكومة
تولا . وكان اسلافه من ناحية الأب ممن كان لهم في تاريخ روسيا ، منذ مدة
طويلة ، شأن يذكر ، وأيضاً فضائح صاخبة إلا أن اسرة أمه ، الأميرة
فولكونسكي ، كانت انبل واغنى . وقد فقد أمه يوم كان في الثانية من عمره
وفقد أباه في التاسعة ، واحتضنته عمات له . وفي جامعة قازان درس اللغات
الشرقية والحقوق قليلاً ، ولكنه في التاسعة عشرة من عمره ترك الدراسة فجأة
لينصرف إلى استغلال أراضيه ، وهناء عبيده . ولم يلبث أن سئم ذلك ،
فعاش خلال فترة ما ، حياة اللذة والمتعة في بطرسبرج ، ثم سافر إلى القوقاز
ليلتحق بأحد اخوته ، ثم دخل الجندية وأصبح ضابطاً . وكان مع ذلك قد قرأ
كثيراً ، وأعجب ببوشكين وجوجل وأعجب أيضاً بموتسكيو وروسو ، وكان
لروسو ، فيما يعترف هو ، تأثير ضخم عليه . وقد حلم بالكتابة في سن
مبكرة . وكتب في القوقاز ، كتابه «طفولة» الذي نشر عام ١٨٥٢ . وليس هذا

الكتاب ذكريات صرفة ، إلا أنه كسائر روايات تولستوى مزيج من الواقع والخيال ، من الشخصيات الحقيقية والشخصيات الخيالية . وعلى كل حال فإن الطفل الذي يضعه في مركز الرواية يمثل هو نفسه ، يمثل تأثيراته وأفراحه واحزانه ، وأن تولستوى ، منذ هذا الكتاب ، ليلعب درجة الكمال في التصوير البصري (وذلك في تلك اللوحات المتعاقبة ، يوم في الريف ، الرحيل ، يوم في موسكو . .) . أما تمة هذا الكتاب «مراهقة» ، «شباب» فقد كتبها على غير هوى ، فجأة خلوا من العفوية والانطلاق . . لقد كانت تجذبه ، منذ ذلك الحين ، جوانب أخرى من الحياة .

ولقد أثرت القوقاز تأثيراً كبيراً في هذا المتلمذ على روسو ، وأعطته جواباً أول على السؤال الذي كان قد طرحه على نفسه ، لماذا نحيا ؟ ففي رواية كبيرة شرع فيها وظلت قصة صغيرة ، وهي «القوقازيون» ، نرى هذا الجواب يعلنه للشباب المتمدن العم بيروشكا ، انسان الطبيعة الذي يحب الأشجار والبشر والحيوانات ويمارس الصيد مع ذلك بلا وخز الضمير ، لأن ذلك هو قانون الطبيعة ، «إن الله قد خلق كل شيء لسعادة الانسان» ، وليس ثمت خطيئة . وإن حب الحياة هذا ليزداد قوة لدى تولستوى حين يرى هذا الموت الذي يواجهه الجندي . فائناء حرب القرم ، حيث كان طابوره محاصراً في سياستوبول . أدهشته تلك البساطة التي يقابل فيها ابن الشعب العذاب والموت ، بساطة جعلت «حكايات» تولستوى عن سياستوبول فائنة أخادة . أما هو ، هو المعقد غير البسيط ، فإن فظاعة الحصار قد زعزعت إيمانه بقانون الطبيعة ، وها هو يعود إلى بطرسبرج تاركاً عمله ، وقد سيطر عليه غير قليل من اليأس والشلل .

ومع ذلك ما أن انقضت فترة قصيرة حتى عاد يأمل بأن التقدم والتطور سيحيلان الانسان مسالماً طيباً . إلا أن هذا الأمل قد أصيب بضربات قوية أثناء رحلة قام بها تولستوى إلى الخارج الذي هو أكثر حضارة من روسيا وأقصى رغم ذلك (لقد شهد في باريس منظر اعدام) . ومع هذا فسيحاول تولستوى

أن يساهم في التقدم والتطور ، وها هو يؤسس مدرسة في ياسنايا بوليانا ، ويؤلف كتب قراءة للشعب ، وسيحاول في الوقت نفسه أن يعيش ، ببساطة ، حياة عائلية ، فيتزوج ، في عام ١٨٦٢ ، صوفيا برس وهو في الرابعة والثلاثين ، وهي في الثامنة عشر ، فتاة جديّة ، حارة ، سريّة التأثير ، ولقد عاش الزوجان خلال سنين طويلة حياة سعيدة في ياسنايا بوليانا ، رغم بعض الصدمات ، وكانت تلك هي الفترة الهادئة والخصبة من حياة تولستوى ، انتج خلالها «الحرب والسلام» (١٨٢٤ - ٦٩) و «آنا كارنينا» (١٨٧٣ - ٧٧)

وكان تولستوى قد فكر في أن يكتب رواية عن الدسمبريين ، فلكني يعلن عصرهم ويشرحه اضطر أن يدرس حروب نابليون . ورواية «الحرب والسلام» انما تمثل في آن واحد كبريات الحوادث التاريخية التي وقعت لنابليون والاسكندر وكوتوزوف والحياة اليومية لاسرتين اسيرة روستوف ، وبولكونسكي ، وقد خلقهما المؤلف على طريقته المعتادة ، فنقل محبته الخاص إلى بيئة اخرى ، واضفى كثيراً من شخصيته على بطليه الرئيسيين الأمير اندره وبطرس . وقد أوتى تولستوى هذه القدرة التي لا يضارعها فيه أحد ، وهي أنه يفرض شخصياته الكثيرة على الذاكرة فرضاً ، بخطوط رئيسية معبرة ، كالنظرة الجميلة من الأمير البشعة ماري وكيباض ذراعي هيلين ، وكثرة حركات ناتاشا التي تركز وترقص وتعدو فياضة بالحياة والنشاط . وأنه إذ يصف لك نابليون وهو يتزين ، أو يصف لك الفلاح الذي يمضي إلى سمرلنسك على عربة ، يشعرك بأنك أمام شيء مرئي محسوس وأن الأسرتين ليتداخل مصيرهما بسهولة ، وكان يصعب أن يربط مصيرهما بمصائر أوروبا بلا تكلف ، لولا أن الحوادث الصغيرة الطفيفة التي تحصل كل يوم لها من القيمة في نظر تولستوى ما لمعركة ظافرة . وما مثل عظماء الرجال الذين يؤمنون بعظمتهم ، كنابليون الذي يعتقد بأنه يوجه التاريخ ، إلا كمثل الطفل الذي يمسك بأسار باب العربة ، فيعتقد بأنه يسوق العربة . وإنما

الحقيقة أن القدر هو الذي يوجه الانسان وأن الانتصار أو الانكسار في المعارك لا يتم بغبرية القائد بل بتأثير عوامل غيبية سرية يستشعرها الجندي البسيط القريب من الطبيعة . إن هذا الرأي الذي لا يمكن التسليم به بلا جدال ، والذي يطيل تولستوى الوقوف عليه والكلام فيه يصبح حياً حين يتجسد في شخصية نابليون ، الانسان الذي اعماه ذكاؤه ، وحين يتجسد في شخصية كوتوزوف ، الرجل السمين الهاديء الذي ينتظر القدر وحين يتجسد في شخصية كاراتيف الجندي الذي يرضى بمكانه في الحياة والموت . وأن الامير آندره وبطرس يبحثان كلاهما عن الحقيقة ، وعليها يقمان حياتهما بين القطبين المتعارضين ، في الطريق الذي يصل بين نابليون وكاراتيف ، فلما الأول فيبحث عنها بالعمل ، وأما في الثاني فيبحث عنها بالتأمل الفلسفي والأول يجد السعادة أخيراً في الحياة العائلية ، بعد أن علّمه كاراتيف في الوقت المناسب ، وكانت ناتاشا تسير نحو هذه الحقيقة وتميل إليها من تلقاء ذاتها ، لأن هذه الكونتيسة الصغيرة كانت كبطلة بوشكين (ناتيانا) على مقربة جداً من الشعب من الحياة . أن «الحرب والسلام» هي نشيد يتغنّى بالحياة ، وما من كتاب يزيد عليه اضطراباً بالحياة ، ففيه تنبض روسيا البطولية الهادئة ، في معارك ومشاهد عائلية ، في آلام واغان ، إنها «الياذة» و«أوديسا» روسيا .

أما في رواية آنا كارنين «فإن تولستوى يحاول أن يصور حياة العصر الحاضر ، ضمن إطار أضيق ، هو حياة البيئة الارستقراطية التي هي بيئته وهو المدينة والحقول . وهنا أيضاً في هذا الكتاب تقع على ألف ذكرى وذكرى شخصية يخلعها المؤلف من نفسه على شخصية ليفين . وهذا الكتاب هو في الحق روايتان متداخلتان رواية الحياة الزوجية التعيسة ورواية الحياة السعيدة ، الملأى بالمشاكل أيضاً . أن آنا كارنين تترك زوجها الفاضل القاسي المتكلف في سبيل الرجل اللامع فرونسكي ، ورغم أن هذا الاخير مخلص أمين كريم ، فإن آنا كارنين تمضي إلى العذاب والشقاء ثم إلى الانتحار . أن كثيراً من القراء ، قد تساءلوا لماذا هذه النهاية المؤلمة ؟ مع إن آنا لم ترد على أن أطاعت

غريزة الحياة ، واستجابت لها ، مثل ناتاشا سواء بسواء . وقد أوحى دوستويفسكي بجواب على هذا التساؤل . فقال : ليس لاحد أن يقيم سعادته على عذاب غيره ، وقد ضحت آنا بالزوج والطفل إلا أن تولستوى قد امتنع عن التحدث عن الأخلاق ، ولم يزد على أن صور لنا حياة امرأة عاشقة ، منذ أن بدأ قلبها يضطرب إلى أن لقيت مصيرها المفجع . وتبرز النية الاخلاقية بعض الظهور في العقدة الثانية من الرواية ، أي تلك التي تصور الحياة السعيدة التي يعيشها ليفين وكيبي . هنا تلاحظ التطور الذي حققه تولستوى بعد رواية «الحرب والسلام» فإن ليفين يعيش حياة عائلية ، ويقوم بعمل مفيد ، والعمل هو الذي كان تولستوى قد اقترحه على أنه غاية الحياة ومع ذلك فإن ليفين يتألم . وها هو ذا يتساءل لماذا أعيش ؟ ويعاني من الغم والقلق ما كان سيدفعه إلى الانتحار لو لا أن أحد فلاحيه قد مدّه بالجواب على ذلك السؤال حين دعاه إلى «الايان بالله» ونحن نعلم من اعترافات تولستوى (التي كتبها عام ١٨٧٩ ونشرت عام ١٨٨٢) إن هذه الازمة الداخلية إنما كانت أزمته هو نفسه ، وإنه خلال سنين طويلة عاشها في سعادة ظاهرية ، قد تزعزعت في نفسه ، على هدوء وصمت ، ألوان من القلق الديني والقلق الاجتماعي ، وإن النور قد انكشف له على يد أناس بسطاء وضعين «إن الايمان هو الذي يجعل الناس يحيون» لقد بحث عن هذا الايمان في كثير من الطرق والدروب ، وعرف الآن أن غريزة الشعب لا تخطيء .

وينبغي إذن أن يمضي الآن إلى اعتناق الدين الارثوذكسي وممارسته ، ولكنه أقل تصوراً وأميل إلى النظر والاستدلال من أن يجد في الارثوذكسية راحة نفسه وطمأنينة قلبه . وها هو ذا يصل إلى هذه القناعة فيقول : لا بد أن يكون الدين صادقاً ما دام يجعل الناس يحيون ولكن لا بد أيضاً أنه تشوّه ما دام لا يرضي عقلي . وها هو ذا ينصرف إلى دراسة التوراة ، ويطرح الانجيل ، ويخرج منه كل ما يبدو له أنه دخيل عليه ، ولا يبقى منه في آخر الأمر إلا على المبدأ الوحيد ، أحب قريبك كما تحب نفسك وبمنطق قوى يستخرج من هذا

المبدأ عقيدة اجتماعية كاملة يحمل رسالتها ويصبح نبئها ، فمثلاً يحرم الحرب لأنها مخالفة لمبدأ الحب ، لا الحرب فحسب ، بل كل مقاومة للشر («فأمدد له الخد الايسر») وكل عدالة انسانية («لا تحكم») ، وكل سلطة قائمة على العنف وعدم المساواة ، حتى ليمضي إلى أبعد من ذلك فيحرم وجود الدولة . ثم يحرم الصناعة «لأنها تخلق عبودية جديدة» ، ويحرم تملك الأرض متى زاد الملك على قدرة المالك على العمل ، ويحرم ما يسمى بمكتسبات الحضارة ، يحرم الترف ، حتى ليحرم الفن ، على الأقل من حيث لا يفهمه الشعب ، فيكون شرفاً .

وماذا يبقى بعد هذا التهديم العام الشامل ؟ يبقى لكل انسان هذا الواجب البسيط ، وهو أن يطعم أسرته من عمله في الارض . وإذا اتحد جميع الناس بالحببة الاخوية لم تبقى بعد ذلك مشكلة واحدة من المشاكل التي أدت إلى تأسيس الدول ، والجيوش والمحاكم . وأن تولستوى ليكرر هذه الاراء في غير ملال أو كلال ، في مؤلفات مفيدة كثيرة ، نشرت في الخارج ، ولكن كانت تتداول بروسيا سراً . وقد حرمه سان سنود ، وظل يعيش غير حافس بالحكومة ، في ياسنايا بوليانا حيث كان يتوافد حجاج متحمسون يأتون من العالم بأسره ، وحاول أن يجعل حياته متفقة مع مبادئه ، فوزع أراضيه على أبنائه ، وكان يزرع حقوله بنفسه ، ويخيط احذيته بيديه ، إلا أن معارضة أمراته في ذلك والصراع الذي قام في نفسه بين عواطفه العائلية وأوامر ضميره جعلت نهاية حياته درامة مؤلمة . وثمة صراع آخر كان يمزقه أيضاً ، فإن الفنان الذي فيه كان يثور على ما ذهب إليه من تحريم الفن ، وكان يستطيع أحياناً أن يقنع الاخلاقي الذي فيه بأن الفن هو انجع ما تتجه به إلى النفوس من موعظة حسنة ففي عام ١٨٨٦ أصدر رواية «موت ايفان ايليتش» ، وهو تصوير واقعي لحياة باهتة تشرق في ساعة الموت . وفي عام ١٨٩٥ أصدر قصة أخرى على نفس الموضوع وهي «صاحب العمل والأجير» ، وفي عام ١١٨٦ أصدر درامته «قوة الظلمات» ، وفي عام ١٨٨٩ أصدر روايته «سوناته كروتزر» ، فإن تأملات تولستوي الحزينة المؤلمة في الزواج أدت به إلى الحكم بالشر على

الارتباط بين الرجل والمرأة وإلى اعتبار هذا الارتباط هائلاً دون الوصول إلى ملكوت السماء . وحين تدرك الانسانية هذه الحقيقة ستقرض ولا شك ، ولكنها ستنتقد ما في ذلك ريب . وبعد هذا المؤلف المرء الذي يشتمل على دراسة اخاذة للحب الجنسي الشهواني الغيور يعود تولستوي ، إلى تفاؤله في آخر رواية كبيرة له ، وهي «البعث» ١٨٩٩ ففي هذه الرواية كما في الرواية «قوة الظلمات» نرى محرماً تلتهم في ذهنه فكرة التوبة والنهوض بالاعتراف والتكفير . وتلك فكرة من فكر دوستوفسكي كما ترون ، ولكن العذاء عند دوستوفسكي يشتمل على حب أكبر في حين أن تولستوي يوجهه نحو العمل المفيد . وفي هذه الرواية أيضاً وضع كثيراً من نفسه في شخصية الأمير نخليودوف بل لقد وضع فيه اعترافاً مقنعاً بخطيئة شخصية ارتكبها ، فالأمير نخليودوف هذا ظن نفسه انساناً شريفاً إلى أن أتى ذلك اليوم الذي تربع فيه على منصة الحكم كقاض محلف ، فإذا هو يتعرف في المرأة المتهمه ، المومس ماسلوف ، فتاة طاهرة كان قد أغراها هو فضيعها . وهاهو يحاول ، باسم الواجب ، بدون حب ، أن يكفر عن خطيئته فيتبعها على طريق سبيريا . وتنهض هي أيضاً من الحضيض بالألم وترفض فضيخته وتنفج لكل من الاثنين حياة جديدة ، مفيدة . . وفي نهاية الرواية يسير بنا تولستوي في مناظر وبيئات لا نعرفها ، ويتراءى لنا أن النهاية طويلة . . ولكن فيها صفحات بلغت من الجمال ذروته ، فاستحقت الخلود .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصراع بين الفنان والمفكر انتهى إلى مصرع الفنان على يد المفكر وأن الصراع بين العواطف العائلية ونداء التقشف قد انتهى بأن تحطمت الروابط التي كانت تعقل تولستوي عن تلبية نداء التقشف .

ففي ٢٨ أكتوبر ١٩١٠ يهرب الشيخ من ياسنايا بوليانا يصحبه طبيبه ، بغية قضاء أيامه الاخيرة في عزلة . ولكن توافيه في القطار هي صدرية فتصرعه ، وفي بيت رئيس محطة اوستابوفو ، انما لفظ اخر انفاسه ذلك الشخص الذي سماه تورجنيف «بالكاتب العظيم الذي انبتته الارض الروسية» ، هنالك في

ذلك البيت الصغير قضى محاطا ، دون ان يعلم ، بجمهور كبير من أسرته ، ومن الصحفيين ، ومن الفضوليين .

زادت العناية بدراسة عادات الفلاحين واخلاقهم بتأثير تولستوي ، وكانت قبل تولستوي ايضا قوية . الا ان هذه الدراسة قد انتهت بحب اوسبنسكي (١٨٤٠ - ١٩٠٢) الذي كان شديد الحساسية وكانت حياته صعبة قاسية فأدى ذلك كله الى الجنون ، اقول ان دراسة أخلاق الفلاحين هذه قد انتهت بحب اوسبنسكي الى خلاف ما انتهى اليه غيره ، وها هو يعلن ان الفلاح انسان مادي ، متعلق بالارض تعلقا حقيقيا ، كما انه من جهة اخرى محكوم عليه بالانهياء بتأثير الرأسمالية . الا ان هناك مؤلفاً اخر ظل رغم قسوة المحن التي مر بها (نفي الى سيبيريا) مؤمنا بالانسانية ، وهذا الكاتب هو كورولنكو (١٨٥٣ - ١٩٢١) انه يعلم ان ماكار المسكين (حلم ماكار) وهو سيبيري كسول سكير سارق ، يشفع له البؤس ويشفع له الجهل . وهو يعرف ان القتلة في «دمدمة الغابة» اقل اجراما من ذلك السيد الفاجر . وان العسكري الذي يقود العدميين الى المعتقل ليس مسؤولا عن عمله . ان شخوص هذا المؤلف اناس غلاظ ، يشبهون جدا حيوانات ونباتات هذه الارض الروسية التي صورها كورولنكو بكثير من الحب في قصصه و«رسومه السبيرية» وان الطيبة والتسامح ليسلان من كل صفحة من الصفحات التي كتبها هذا المؤلف ، لقد كان هو نفسه طيبا كريما ، فكانت حياته وقفا على مساعدة البائسين ، سواء في ظل الحكم السوفيتي وفي ظل الحكم القيصري .

التشاؤم نهاية عصر - ان هذه العافية الروحية التي نعم بها تولستوي وكورولنكو هي امر استثنائي في نهاية هذا العصر التشائمة . ان الهواء لثقل ، وان الرجعية لتظفر ، وان النفوس الكريمة لترى جهودها تذهب ادراج الرياح ، فتطوى على ذراتها حزينة كاسفة البال . ان اللوحات التي يقدمها لنا الروائيون هي مناظر مجتمعات يشرف على الموت ، راضيا بالموت ، غير مؤمن بإمكان الانتفاض والانبعاث . المسكين (حلم ماكار) وهو سيبيري كسول

سكير سارق ، يشنع له البؤس ويشنع له الجهل . وهو يعرف ان القتلة غي «دممة الغابة» اقل اجراما من ذلك السيد الفاجر . وان العسكري الذي يقود العدميين الى المعتقل ليس مسؤولا عن عمله . ان شخص هذا المؤلف اناس غلاظ ، يشبهون جدا حيوانات ونباتات هذه الارض الروسية التي صورها كورولنكو بكثير من الحب في قصصه و«رسومه السييرية» وان الطيبة والتسامح ليسيلان من صفحة من الصفحات التي كتبها هذا المؤلف ، لقد كان هو نفسه طيبا كريما ، فكانت حياته وقفا على مساعدة البائسين ، سواء في ظل الحكم السوفيتي وفي ظل الحكم القيصري .

التشاؤم نهاية عصر - ان هذه العافية الروحية التي نعم بها توسلستوي وكورولنكو هي امر استثنائي في نهاية هذا العصر التشائمة . ان الهواء لثقل ، وان الرجعية لتظفر ، وان النفوس الكريمة لترى جهودها تذهب ادراج الرياح ، فتنطوي على ذراتها حزينة كاسفة البال . ان اللوحات التي يقدمها لنا الروائيون هي مناظر مجتمعة يشرف على الموت ، راضيا بالموت ، غير مؤمن بامكان الانتفاض والانبعاث . وانك لتلاحظ هذا الجو منذ جارشين الذي انتحر عام ١٨٨٨ ولما يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره . ان شخصياته أناس «مرضى في نفوسهم» معذبون ، كشخصيات دوستويفسكي الا ان المسيحية لاتقدم لهم حلا لمشكلتهم . وهو يصور لك الناس جميعا ميسرين للعذاب ، لا الناس فحسب ، بل كذلك الحيوانات وحتى النباتات فهؤلاء جنود يموتون دون أن يعرفوا لماذا يموتون ، وهؤلاء عمال يقومون بأعمال غير انسانية . وان المؤلف ليدون ان ينتزع من الارض ، كمجنون «الزهرة الحمراء» هذا الشر الذي يلاحقه ويضطهده ، الا ان الشر أقوى من البشر .

اما مؤلفات تشيخوف وهي أقاصيص موجزة ودرامات ، (لم يكتب تشيخوف رواية طويلة) فانها لوحة كاملة للمجتمع الروسي قبيل الثورة . واذا استثنينا بعض الاقاصيص الفكاهية الملأت بروح النكتة والمفاجأة ، والتي تعود عامة الى عهد شبابه والتي لا تخلو مع ذلك من شيء من الكآبة ، فان الانطباع

الذي تخلفه فينا مؤلفات تشيخوف هو الحزن الكبير .

ولد انطون تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) من اب كان بقالا صغيرا في تاجازوج ، ودرس الطب في موسكو ، ومنذ ذلك الحين أخذ يكتب قصصا صغيرة حتى يكسب رزقه ويساعد زويه ، وقد أصابت قصصه هذه نجاحا سريعا ، فأصبح في غير حاجة الى ممارسة الطب فاستطاع ان يحقق حلمه ، وهو ان تكون له قطعة من الارض في الريف الا ان المؤسف ان السل قد اضطره الى مغادرتها بعد ذلك بقليل ، والى أن يعيش في القرم . وكان مريضا جدا يوم تزوج الممثلة اولفا كينبر ، ثم مات اثناء اقامته في الغابة السوداء بألمانيا ، وقد عرف في الاوساط الكثيرة المتنوعة التي ارتادها في العواصم وفي الريف بأنه يتمتع بموهبة الملاحظة على أرهف ما تكون موهبة الملاحظة وكان يمتاز الى ذلك بموضوعية هادئة نيرة تميزه عن معظم الروائيين الروس ، وبسبب هذه الموضوعية كثيرا ما اتهم بالبرودة وفتور العاطفة (وما علينا مع ذلك الا أن نقرأ الاقاصيص التي وقفها على سن الطفولة حتى تستشف وراءها ما يخفي من عاطفة حارة متدفقة ذلك انه لا يملك موهبة الانخداع التي تتيح لغيره ان يؤملوا في فضائل الفلاحين او جهد المثقفين . فالفلاحين (الموجيك) الذين يصفهم أناس قد احطهم البؤس والكحول وليس ايمانهم الا خرافات واوهاما ، وأخلاقهم أخلاق حيوانية . واما الاسر النبيلة فهي تعيش حياة وضعية فقيرة في بيوتها المتداعية ، وليس لها من القوة ما يؤهلها للتلاؤم مع ظروف جديدة . واما الحياة العاملة التي يعيشها اصحاب الحرف ، واما الحياة الباذخة المحدودة التي يعيشها التجار الموسرون («ثلاث سنين») فهما كذلك خاليتان من أي مثل اعلى . صحيح أن هناك عددا كبيرا من الطلاب الذين يتحرقون شوقا الى أن ينفوا حياتهم على رسالة كريمة ، الا ان هذه الشعلة ستنتفيء سريعا لدى طبيب القرية، والذي ترهقه اعماله ويعيش منعزلا في بيئة جاهلة . وستنتفيء لدى الموظف والقاضي والاستاذ الذين سيغرقون في تفاهة المدينة الصغيرة ، والذين سترهقهم رقابة الوشاة الى السلطات فيتنحون عن الحياة وجلين

ويقيمون بعيدا عنها وفي معصم منها ، او يخضعون لرؤسائهم ، فما يبحثون عن غير الترفيع والنياشين . وحتى المثقف الرفيع والفنان والعالم كلهم سجين الروتين ، وها هو الاستاذ (في حكاية مملعة) يجيب الفتاة التي تسأله مبدأ للحياة ، ها هو يجيبها بقوله : «لست ادري» ان سيطرة الحياة اليومية التي تفسد كل شيء ، فما يصمد لها أي حب ، ولا يصمد لها اي مثل أعلى هي الموضوع الاساسي في مؤلفات تشيخوف . مع الاعتقاد بأن كل جهد باطل . ان ابطال تشيخوف لا يياضلون ولا يكافحون . وانما هم يستسلمون ، ينتظرون توقف الحياة . . . ولا كذلك ابطال فيدرو سولوجوب الروائي ، الشاعر الدرامي ، (١٨٦٣ - ١٩٢٦) فانهم لا يستسلمون . انهم يكرهون الحياة . وان الرغبة في الموت لتملؤهم جميعا ، حتى الاطفال فهم «الموت بالجريدة» ، «الخطيئة في ثياب الحداد» . والذين يعتقدون منهم بانهم يعيشون انما هم في الواقع أشباح اكثر من الاخرين ايضا ومن رواية «الشيطان المسكين» وهي رواية جميلة اخاذة ، ينتشر جو كرية عفن جو مدينة صغيرة ، مصنوعة من ملل وفودكا ، وخلافات ورسائل غفل وشايات وأهم هذه الروائع رائحة ذلك الرجل الحقير الدنيء بيريد ينوف .

جوركي : هنا تفهمون لماذا شعر الجمهور بشعور الخلاص ، حين سمع ، على حين غرة ، وسط هذه الكآبة العامة الشاملة ، رنين قهقهات وقحة يطلقها صعاليك جوركي . هؤلاء لم يكونوا تعين من الحياة ، رغم البؤس ورغم الاخطار . كانوا يعضون بأسنانهم على الحياة عضا ، لا يقلقهم وسواس ولا يؤرقهم هم . ولد مكسيم جوركي ، واسمه الصحيح الكسي يشكوف ، عام ١٨٦٨ ونشأ ببنيجني - نوفجورود في اسرة صناع كانت أخلاقهم وعاداتهم قاسية وحشية . ومنذ العاشرة من عمره أخذ يتقلب بين جميع المهن ، ويتنقل من مدينة الى اخرى ، فعمل شيالا في اوديسا ، وخبازا في قازان ، ثم مستخدما في السكة الحديد بتفليس . وقد قرأ على سبيل العرض والصدفة ، روايات فرنسية بوجه خاص ، كروايات بالزاك ، ودوماس

الاب ، وبونسون دي تيراي ، ومنذ ١٨٩٢ نشر قصته : «ماكار تشودرا» في جريدة القوقاز . ثم استفاد من حماية كورولنكو ، وجاءه النجاح في سرعة صاخبة مجنونة ، في الخارج وفي روسيا جميعا . ولم يلبث ان الف ايضا مسرحيات تمثيلية فزادت في شهرته وذوبوع صيته ان في القصص الاولى التي كتبها جوركي كثيرا من الرومانسية ، فلا المناظر ولا الشخصيات تشعرك بانها صادقة صدقا مطلقا ، الا ان هذه الرومانسية نفسها قد اعادت الى الجمهور الذي اتعبته التحليلات النفسية الدقيقة شيئا من الشباب والفتوة . فتحت الشمس الساطعة التي تملأ جوانب الفيافي الجنوبية ، وفي رياحها العاصفة العاتية . يرسم لنا جوركي ، بخطوط قاسية ، رجالا مغامرين ، ومهرين ، رجالا لا يتراجعون امام عمل شاق ، ولا يجمعون عن الدعارة والفسق ، ولا عن الجريمة ولا يشعرون نحو الحياة الرتيبة المنتظمة التي يعيشها سكان المدن والقرى الا بالاحتضار انك لتشعر حتى لدى اسقط هؤلاء الناس ، بقوة جديدة . . .

الا ان ثورة داخلية قد تمت في نفس جوركي ، فأدت به من الفوضوية الى الماركسية ومن الرومانطيقية الى الواقعية في الوقت نفسه . فاذا بصعاليكه المتشردين يحل محلهم الان صناع وتجار كما عرفهم في طفولته ، وذلك في قصة «فوما جوردييف» ثم في قصته «ما تفيثي كوجيمباكين» ثم بعد ذلك بكثير (١٩٢٥) في قصته «قضية ارتامونوف» ، وهي قصة صعود وهبوط أسرة بورجوازية . لوحات قائمة الالوان . ولكن في مقابل هؤلاء البورجوازيين المساكين الكبار والصغار ، ويرسم لنا جوركي العمال الذين يهتئون الثورة ، والذين يشبهون في حماسهم وحياهم ابطال جوركي الاول ، ولكن على نظام وضبط . واما رواية «الام» فان غلبة السياسية عليها تسيء أحيانا الى صدق التصوير ، فتبعد بأشخاص هذه الرواية عن الواقع ، هذا الى جانب صفحات رائعة ، واما الرواية الاخيرة التي كتبها جوركي ، اعني «حياة كلیم سامجين» فانها تصور الثورة وهي تسير . . .

ولكن الروائي لم يبلغ قوة التصوير الحي المثير في موضع من كتبه مثلما بلغها حين قص علينا طفولته هو . وما من شخصية من شخصياته الخيالية تفوق في قوتها وحياتها الجذ الفطيع ، والاعمال السكيرين القساة ، والام الحنون المستسلمة ، في كتابه «طفولة» ولا من شخصية تلك الشخصيات الخيالية تفوق في قوتها وحياتها شخصيته هو نفسه ، كما نراه في هذا الكتاب الاول من ذكرياته وفي الكتب التي تليه ، انسانا حساسا متمردا . وانه لمن بعيد جدا انما نقل نفسه هكذا بالخيال الى مسقط رأسه وبعد اخفاق الثورة عام ١٩٠٥ اضطر أن يترك روسيا ، فيقيم ردحا من الزمن في نيويورك ، ثم يستقر في كابري . ويعود الى روسيا مرتين مرة أثناء الحرب ، وهذا ما أتاح له أن يشهد انتصار الثورة ، وأن يكون فيها المرافع عن القيم الفكرية ، ومرة اخرى يعود الى روسيا ليموت فيها عام ١٩٣٦ .

الواقعيون والرمزيون - ونذكر الان ليونيد اندرييف وهو مؤلف روائي ودرامي ، وكان يعتقد نفس الراء السياسية التي كان يؤمن بها جوركي ، الا أن مزاجه يختلف عن مزاج جوركي كل الاختلاف ، لقد كان العالم الخارجي لايعنيه بقدر ما كان يعنيه سر المصير ، وكان يميل الى أن يخلع على أشخاصه قيمة رمزية ، وكان الموت يوم مؤلفاته كما هوم فوق مؤلفات مسولوجب . ومن أهم اثاره «قصة المشنوقين السبعة» وهي دراسة لاستجابات سبعة اشخاص حكم عليهم بالاعدام ، و«عبء الحرب» وهي قصة تصور انعكاس الاحداث الكبرى على صفحة نفس تافهة عادية .

وهناك آ . كوبرين ، وهو تلميذ جوركي ، وقد صور لنا بقوة عظيمة ذلك الجو الخائف في مدينة صغيرة من المدن التي يقيم بها الجنود («المبارزة») وصور لنا الحركة الهائلة التي تسود مرفأ كبيرا («جامبرنيوس») وصور لنا حياة المؤسسات الخفية الا ان الاسراف في التفكير النظري كثيرا ما يقطع سلسلة الحوادث على نحو غير مقبول وذلك مأخذ لا يمكن ان يؤخذ على ايفان بوبين . ولد ايفان بوبين عام ١٨٧٠ وحصل على جائزة نوبل للاداب ، وهو يمتاز

بقدرته على القرص اللاذع ، وبأسلوب دقيق واضح وملون ، وبمنظرة موضوعية باردة . نذكر من آثاره رواية «القرية» و«سيد من سان فرانسيسكو» .

الى جانب الرواية الواقعية التي نصرها هؤلاء الروائيون ، ونصرها شامليف وزايتسيف وكثير من الروائيين ايضا ظهر في نهاية القرن التاسع عشر تيار معارض ، مرتبط باندفاعة الشعر الرمزي . وينبغي ان نذكر الان ميرجكوفسكي الذي لم تكن الرواية عنده الا عرضا للافكار التي تفيض بها آثاره ، في الشعر والدرامة والنقد ، وهي تتلخص في البحث عن توفيق بين المسيحية الثقافة الوثنية ، وبين الروح النازارية والروح اليونانية ، وان رواياته الثلاث التي تضمنها كتابه «المسيح وغير المسيح» تصور ثلاث مراحل من هذه المحاولة .

اما الشاعر ببلي فقد كان مشغولا بتلك المسألة الابدية ، اعني مسألة اتجاه روسيا نحو الشرق أو نحو الغرب ، ففي روايته «الحمامة الفضية» يذكر لنا النهاية المؤلمة التي ينتهي اليها رجل مثقف افتتن بجماعة من المتعصبين الشهبانيين الصوفيين . اما بطرسبرج «فهي في نظر ببلي مدينة ليست بذات وجود واقعي ، وانما هي ثمرة خيال بطرس الاول ، وانما سكان «موسكو» ، فليسوا هم ايضا الا مظاهر غامضة .

وما من شيء في نظر هذا الشاعر الخالم الحساس الا وهو وهم ، وقد كشف شاعرنا هذا عن نفسه في رواية عرض فيها سيرة طفولته وهي «كويترك ليتايف» ، وفي كتاب اخر بعنوان «ذكريات شاذة» .

وأما الكسيس ريميزوف ، المعجب جدا بجوجول ودوستويفسكي ، فانه لم يتردد في الاختيار . فهو أمام هذا الحزن الثقيل الذي يصوره لنا في كتابيه «اخوات - الانتخاب» ، و«الجرح الخامس» لا يجد ملجأ غير التقاليد الروسية القديمة والحكايات والاساطير ، يؤلفها تأويلا رمزيا ، ويخلع عليها شكلا مرهفا بديعا .

اذن فلقد كان الانتاج الروائي قبل الثورة غزيرا ومتنوعا . . . ومع ذلك فان
عصر ازدهاره الاكبر كان قد انقضى . . . وستأتي الثورة للرواية بموضوعات
جديدة . . .

*

*

الفصل السابع

المسرح في القرن التاسع عشر

تاريخ المسرح في روسيا اقل بريقا من تاريخ الرواية ، ولقد أثرت الرواية الروسية في الرواية الغربية تأثيرا جبارا ، اما المسرح فلئن انتج اثارا قوية ، فانه لم يبدع اللهم الا من ناحية الاخراج المسرحي ، في عهد متأخر .

الدرامة التاريخية . لم تفقد الدرامة القومية سحرها يوما ، (منذ الرومانطيقية) في نظر الجمهور الروسي الذي صف لمسرحتي «بسكوفتيانكا» و«خطبة القيصر» للمؤلف الدرامي ، وصفق لدرامات ككولينسك ، وصفق خاصة للدرامات الثلاث التي كتبها الكونت الكسي تولستوي وهي : «موت ايفان» و«القيصر فيدو» «القيصر يوريس» (١٨٦٧ - ٧٠) . ان قالب هذه المآسي التي كتبها تولستوي هو عين القالب الذي كب به شيلر مآسيه ، وان تأثير شيلر لواضح في آثار تولستوي هذه ، وكذلك تأثير شكسبير وبوشكين ، الا ان هذه الآثار بما تمتاز به من تصوير حي للماضي ، ومن دراسة عميقة للطباع ، ومن جمال شعري ، تستحق ان توضع في مصاف النماذج التي اخذتها ولن يضير تولستوي ان تقارن درامة «القيصر يوريس» بدرامة بوشكين يوريس جودونوف ، ولكن لئن كان تولستوي لم يؤث ما اوتي به بوشكين من بوارق مضیئة سريعة فانه يمتاز على بوشكين في احساسه بالمسرح . وهو يصور يوريس على النحو التالي : انسانا ما يكاد يخامره تأنيب الضمير ، ويهزه الطمع

والصالح والقوي في آن واحد ، حتى يلتفت بأسره الى العمل . واما القيصران الاخران فقد أجاد تحليل طبيعتهما أكثر من ذلك أيضا : من أروع وجه ايفان المرعب الذي يتردد ، وهو على حافة قبره ، بين تأنيب الضمير والزهو ، بين الخوف من الجحيم والرغبة في الدعارة ، ما أروع صورته وقد بلغ من شدة التوحيد بين شخصه وبين امبراطوريته انه يجعلها تشارك في ذبذبات نفسه ، ويذلها حين يذل نفسه ، بينما ابنه فيدو - الطيب الضعيف النقي يذكرنا بانقى الوجوه التي طلع علينا بها دوستويفسكي . وقد اوتى تولستوي قدرة هائلة على اختيار مشاهد تفاجأ الخيال ، وكان يعرف كيف يخلّف في النظارة اثرا قويا يبيت من الشعر أحسن صكه . . . ان هذه التراجديات ، وقد ساعدها ترف عظيم في الملابس والستائر ، عدت من ألمع مشاهد المسرح الفني بموسكو .

المسرحيات التي تصور الاخلاق والعادات - على أن الكوميديا التي تصور الاخلاق والعادات كانت أحضر للموهبة الروسية ، فبعد نونفزين في القرن الثامن عشر وجوبوييدوف في العصر الرومانطقي ، انصرف جوجول بطبيعته الى هذا الفن وسار في هذا الطريق . وقد جرّب نفسه أولا في مسرحيات صغيرة هزلية مثل : «صليب القديس فلاديمير» و«الزواج» ، وهذه الاخيرة دراسة فكهة لبينة «البائعين» ولخطيب متردد لا يعرف كيف يعزم أمره ، وفي مسرحية «المفتش» يصل جوجول الى درجة امتلاك ناصية هذا الفن . وفكرة هذه المسرحية قد اوحى بها اليه بوشكين يوم قص عليه نادرة حقيقية : وهي تمثل شابا يمر بمدينة صغيرة ، ويشته في أمره الموظفون ذوو الضمير القلق ، ويعتقدون انه مفتش مكلف بمراقبة أعمالهم خفية . وها هم يحتفلون به ، ويتبارون في اكرامه ، ثم لا تظهر حقيقة الامر الا بعد سفره . وان ما في هذه العقدة من قوة هزلية اخاذة وما ، في تصوير الشخصيات من فن كاريكاتوري رائع كل ذلك لا يخفي الالوان القاتمة التي تصطبغ بها هذه اللوحة . فجميع الموظفين ، وعلى رأسهم الحاكم ، أناس لا أخلاق لهم ولا ذمة ولا ضمير ، وانهم ليلغون من ذلك مبلغا يبعث على الاشمئزاز الى أبعد حد . وقد كان

تأثير هذه المسرحية كبيراً جداً ، الى درجة ان المؤلف نفسه قد هاله الأمر ، فلم يسعه الا ان يعلن بانه لم يكن له من غاية الا ان يضحك الجمهور .

ويكاد يكون السكندر اوستروفسكي (١٨٣٣ - ١٨٦٠) الكاتب الروسي الوحيد الذي وقف كل نشاطه الأدبي على المسرح : ولقد قدم لنا مسرحيات تاريخية على غرار شكسبير ، وترك لنا حكاية درامية جميلة («سنيجوروتشكا») ، إلا أن القسم الاساسي من آثاره انما هو خمسون مسرحية هزلية مما يصور الاخلاق والطباع . وانه لكاتب مسرحية هزلية مما يصور الاخلاق والطباع . وانه لكاتب مسرحي حقاً ، عرف كيف لا يظهر من نفسه شيئاً ، وكيف يمتنع عن ابداء اية نظرية ، واخلاقه بسيطة جداً ، هي الشرف والحس السليم . والعقدة عقدة بسيطة ايضاً . فانما هو يدرس طباعاً واخلاقاً . . لقد كشف لكثير من الروسيين عن بيئة «البائعين» بموسكو عن هذا العالم القائم بذاته الذي احتفظ في حياة القديم وراء الموسكف (حيث ترعرع اوستروفسكي) بقوانينه الخاصة به ، وبلغته ، وظلّ ازاء الارستقراطية المتأثرة بأوروبا يعيش كما كان يعيش في ايام «دومستروي» . على أن «البائع» ٧١/٧٢ فبحبه للمال يعرف كيف يجمع بين قلة الذمة التي تمتاز بها التجارة الشرقية وبين الحيل الحديثة ، ومن جملتها الافلاس الكاذب . وهو لا يفتني لغاية البخل ، بل لغاية التباهي . . . وما أجمل الصورة التي رسمها لنا المؤلف لاحد هؤلاء البائعين الذي يشبه مسيو بجوردان ، وقد انتفخ زهواً ، واطمأنت نفسه لانه قص ذقنه ، ولأنه يشرب الشمبانيا . إن البائع يحتقر جميع القيم التي لا يمكن أن تقدر بنقد . وهو خال من اية رغبة في الاطلاع الفكري ، ولا يعنى بتعليم أبنائه ، ويحتفظ بجميع الاعتقادات الخرافية الوهمية القديمة . وانه ليقيم نفسه حاكماً مستبداً رهيباً على أسرته ومستخدميه و إمرأته التي تغمرها الحليّ والجواهر قد تزوجت بارادة ابيها ولم تزدد على أن استبدلت سيداً بسيد وقلّ ان تشور او تتمرد . ومع ذلك فان كاترين العاطفية العنيفة («العاصفة») التي تحتق بين حماة ظالمة مستبدة وزوج

ضعيف لا حول له ، تستجيب لصوت رجل يغويها ولكنها ماتلبث ان يمزقها
تأنيب الضمير ، فتعترف بخطيئتها وتتحرر . ذلك أن المرأة لا تتصور حياة
اخرى غير الحياة التي تفرضها عليها التقاليد ، ولا تتصور مهربا آخر من
سجنها غير الواجبات الدينية ، وأغنيات الخادعات . والمرأة اذا تزوجت لغير
طبقتها كانت شقية ايضا («لا تجلس في عربة غيرك») . على أن اوستروفسكي
لا يعامل الطبقات الاخرى بتسامح أكبر . وهاهو في مسرحياته «الحديقة» ،
«الغابة» ، «الذئاب والشيء» يطوف بنا في بيوت من بيوت صغار السادة في
الريف ، فيرينا نساء مستعبدات منافقات يخفين وراء مظاهرهن الكاذبة ماضيا
مضطربا ، او غراميات عجوزة ، او طمعا وقحا والموظفون هم ايضا عبيد
المال . وانك لتشعر ان حب المؤلف منصرف الى رجال المسرح الذين يظهر
عيوبهم المضحكة ولكنه يظهر ايضا ما يتمتعون به من اخلاص وتنزه عن المنفعة
«الغابة») ، ومنصرف ايضا الى الشواذ مثل ليوبيم تورتسوف في مسرحية
«الفقر ليس رذيلة» الذي يحمل قلبا كريما رغم سقوطه . على أن مسرحيات
هذا المؤلف قلما تخلف في النفس اثرا مراً فكثيرا منها يشرق في الخاتمة ،
ويزول عنه هذا الطابع القاتم ، وهي على كل حال مزيج محكم من الهزل
المضحك والحزن المؤلم . اما لغتها فسائغة عذبة رائعة ، فيها كثير من التعابير
الشعبية . وخير هذه المسرحيات مازال مدرجا في قائمة المسرحيات التي يستمر
تمثيلها . وهناك مسرحية اخرى لم ينقطع تمثيلها منذ عام ١٨٥٥ ، وهي
«زواج كنشنسكي» من تأليف سوخوفو - كويلين . وهي تدين بذلك لقوة
عقدتها وجمال حوارها .

وعلى غرار الرواية عني المسرح بالاخلاق الفلاحية . فمسرحية «حكم
الناس ليس حكم الله» من تأليف بوتيشكين (١٨٥٤) ومسرحية «مسير مر»
(١٨٥٨) من تأليف بيزمسكي قد تقدمت في هذا المضمار «قوة الظلمات» لليون
تولستوي (كتبت عام ١٨٨٦ ، ولم تمثل في روسيا إلا سنة ١٨٩٥ ، وذلك
بعد أن مثلت منذ عام ١٨٨٨ بباريز في مسرح انطوان) ، التي لعلها اقوى

مشرحية روسية على الاطلاق . . . انها لوحة تمثل اخلاق الفلاحين وعاداتهم ، وتطلقنا دون أن نشعرنا بما بذل صاحبها من جهد لجمع هذه المعلومات ، على عادات الفلاحين ، واعيادهم ، ولغة قرية من منطقة تولا ، الا أن هذه المسرحية هي بوجه أخص دراسة سيكولوجية يتجاوز مداها زمان المسرحية ومكانها ان تولستوي يريدنا في هذه المسرحية كيف سار الشر خطوة خطوة سيرا لا محيد عنه في نفس جرّها الضعف الى ارتكاب خطيئة اولى ، فاذا هي ماتنفك توغل في الوحل أكثر فأكثر ، الى ان تتحرر بالاعتراف والتفكير . وان للشخصيات التي يعرضها لنا فردية قوية ودلالة رمزية في الوقت نفسه : فالعجوز ماترينا ، الفلاحة المناقة الطمّاعة التي تتصور الجريمة تلو الجريمة وشفقتها تتحركان دائما بالصلاة والدعاء تمثل مبدأ «الشر» في حين أن الخير يتجسد في اكييم البسيط الساذج الى حد يكاد يكون فيه مضحكا . وهذان الشخصان يتنازعان نفس ابنيهما ، كما يتنازع الخير والشر في كل نفس انسانية . وهكذا فان تفكير تولستوي الديني لا يعبر عن نفسه ابدا تعبيرا مجردا ، ونلاحظ ان العنف المفجع في تسلسل الحوادث لا ينقطع في لحظة من اللحظات ، وهو يبلغ من الواقعية احيانا حدا لا يكاد يطاق ، وذلك في مشهد قتل الابن مثلا . ومن المؤسف اننا لانجد هذه الموضوعية نفسها في مسرحية «النور يلمع في الظلمات» ، وهي مسرحية طويلة ، شائعة ، خاصة من ناحية ما تعرضه من سيرة المؤلف نفسه . وفي مسرحية «الجثمان الحي» نحرر ايضا آلام تولستوي ، وحاجته الى الهروب . ولنذكر ايضا هذا الامر غير المتوقع : وهو أن تولستوي قد ألف كذلك ملهاة (مسرحية هزلية) يسخر فيها من مذهب الرومانسيين ، وهي «ثمرات التعليم» ، وهي تبرهن لك على ما تمتاز به مواهب تولستوي من تنوع وغنى ، أن كنت في حاجة الى مثل هذا البرهان . . .

ومما يؤسف له حقا أن تورجنيف سرعان ما انصرف من المسرح ، وزهد به . وان مسرحياته التي كتبها في شبابه ، ولا سيما «شهر في الريف» ،

والتي تكاد تخلو من العقدة ، ولكن تمتاز برهافة سيكولوجية ، تعرف كيف تخلق جوا . وهي تذكرنا بتشخوف .

واما مسرح تشخوف فهو يتناقض ، كما تتناقض اقاصيله واكثر ، مع مجموع الانتاج الروسي . فالانتاج الروسي جملة يجب أن يمضي بالمضحك الى درجة الكاريكاتور ، وان يمضي بالألم الى حد الصراخ ، ويجب ان يدافع عن رأي اوقضية (ولكن هذا الدفاع كان في المسرحيات اكثر اعتدالا منه في غير ذلك ، لان المسرح كان مراقبا من قبل السلطات مراقبة دقيقة) ، في حين أن مسرحيات تشخوف لا تبالغ في التصوير بألوان صارخة ، وهي اقرب الى الايماء والتلميح منها الى التعبير والتعليل . وهي وان كانت لا تخلو من عقدة ، ولا تخلو كذلك من عناصر فاجعية ، فان الشيء الاساسي فيها هو ما يتم في اعماق النفوس ، والنفوس لا تنفتح إلا على خجل واستحياء . والحوار فيها ادنى الى القصد والاعتدال ، ولما نرى فيها انفجارات عاطفية عنيفة ، ولا تكاد نقع على مناقشات فكرية ، ولكنها تنطوي على قوة ايمائية هائلة . نذكر من هذه المسرحيات « La mouelte » .

(١٨٩٦) وهي تصور بيئة كتاب وممثلين و«الاخوات الثلاث»

(١٩٠٢) وهي تصور مدينة صغيرة ناعسة و«العم فانيا»

(١٩٠٠) و«حقل الكرز» (١٩٠٤) وهما تصوران انهيار النبالة الريفية . ومن

جميع هذه المسرحيات تتصاعد روائح سامة غامضة ، ومياه متفسخة ، واوراق مية . . وهذه الروائح التي تتصاعد من كثير من اقاصيل تشخوف .

وابطاله لا يملكون من الشجاعة ما يؤهلهم للاستجابة ورد الفعل .

فالاخوات الثلاث لن يسافرن ابدا الى موسكو والعم فانيا وابنة اخته

سيستمران في كل مساء على القيام بعملهما الممل الحزين ، اعني اجراء

الحسابات المتعلقة بممتلكاتها ، واصحاب حقل الكرز تظل تملا رؤوسهم

الاوهام عن امكان الاحتفاظ بالارض الى أن يأتي ذلك اليوم الذي سقطت فيه

اولى اشجار الكرز تحت فأس المشتري . . . وانه لعالم ينتهي .

ويرى كثيرون ان تشيخوف قد اثر في جوركي ، فاتجه هذا الى المسرح مبكراً : وجوركي يصف هو الاخر ضيف المدينة الصغيرة (اصحاب الحرف) ، ويصف عالم الفنانين (الراحلون الى القرى) و«ابناء الشمس» ، وهما نقد للطبقات ذات الثقافة العالية تذكر اناب «قصة مملّة» ، إلا أن مزاج جوركي مزاج حاد متطرف ، ظاميء الى التعبير عن آرائه ومعتقداته ، في حين ان تشيخوف رجل متحفظ معتدل . واحسن آثار جوركي في المسرح مسرحيته «الاراضي الواطئة» (١٩٠٢) ، فمن ملجأ ليلي قدر امتلاً بوجوه للمفصلة تخرج صرخة ايمان بمستقبل الانسانية . وان الدرامات الاخيرة التي كتبها جوركي قبل الثورة وبعدها كان يزداد اتجاهها السياسي وضوحاً ، يوماً بعد يوم .

وقد ألف ليويند أندرييف مسرحيات متنوعة جداً ، إلا أنها مشبعة كلها بعين التشاؤم الذي يشيع في اقصائه . فمسرحية «سافا» (١٩٠٦) في ثورتها على القدر تريد أن تنتزع من الناس ايمانهم وتهيب بهم ان يتأملوا بؤسهم وشقاءهم وجها لوجه «عريا على هذه الارض العارية» . واما دراماته الرمزية فهي اقرب الى الادعاء الفلسفي منها الى العمق الحقيقي .

واما الدرامات الرمزية الجميلة التي كتبها بلوك (الفارس) ، الوردة والصليب «المهرج» ، الخ) فقد كتبت للقراءة لا للتمثيل ، وهي ادنى الى الشعر ، منها الى المسرح . ومثل ذلك يقال عن تلك التراجيديات النبيلة التي كتبها فياتشسلاف ايفانوف مثل «تانتال وبروميشوس» ، وهي تستمد من اليونان شكلها وموضوعها معا .

وان عرضاً لتاريخ المسرح الروسي ، مهما يكن موجزاً ، لا يمكن ان يغفل عن ذكر تلك الاخراجات الرائعة التي يعود الفضل فيها الى ممثلين ومخرجين ، ولا سيما عن دور المسرح الفني بموسكو الذي أسسه منذ عام ١٨٩٨ ستانيسلافسكي (وهو الاسم المستعار لرجل الصناعة ك . آلكسييف) ونيميروفتش وانتشنيكو . فان هذا المسرح ، بما يعد اليه من اخلاص تام للآثر

الممثل ، وبما يتمتع به من تجانس فرق التمثيل فيه ، وبما يلتزمه من دقة في
السنائر تمضي الى حد الاصلية ، قد مثل ومازال يمثل الى الآن مسرحيات
لألكسي تولستوي ، و«قوة الظلمات» و«الأراضي الواسعة» تمثيلا لا يمكن ان
ينسى . ومع ذلك فان الواقعية التامة قد ظهر اتجاه يعارضها في مطلع القرن
العشرين اتجاه يمضي الى تبسيط الأطر ، وفسح المجال للخيال . وان اسمى
مير هولد وفاختانجوف معروفان في اوروبا كلها .

الشعر بعد الرومانطيقية

اصبح الأدب الروسي ، ابتداء من عام ١٨٤٠ ، ساحة حرب ، واصبح الشعر سلاحا . ومع ذلك بقي عدد من الشعراء من تتلمذوا على بوشكين رفضوا ان يمسخوا «بالمقشة لتنظيف الشوارع» ، وكان ثمت رأيان : فبعضهم يرى ان الشاعر مواطن قبل كل شيء ، وبعضهم يرى أن الشاعر فنان قبل كل شيء . وليس غريبا ان يكون الاولون هم التحرريون الذين يعيشون الى جانب الشعب ، وان يكون الشعراء الذين يذهبون الى الرأي القائل بان الفن للفن هم الارستقراطيون المحافظون . ولكن لئن كانت الحياة أقسى على الاولين منها على الآخرين ، فان المجد قد جاء لهؤلاء الآخرين يسعى ، بينما ظل الاولون مجهولين او عرضة لهجوم الناس .

شعر النضال : - اكبر شعراء النضال هونيولا نكرازوف (١٨٢١-٧٧) . وحينما وقف دوستوفسكي على قبره ، وكان لا يشاركه آراءه ولكن يعجب بموهبته ، فوضعه قريبا من بوشكين ولرمونتوف ، صرخ الجمهور في حماسة : «انه أعلى انه أعلى» . وهو ينتمي الى النبالة الصغيرة ، وقد ترعرع في الريف ، وأثرت في قلبه قسوة والده عليه ، ومشاهد بؤس الفلاحين تأثيرا كبيرا . وقد رفض ان يصبح ضابطا ، فعاش حياة قاسية الى ان سهلت له صداقة بيلنسكي ان يصبح صحافيا ، فكان مديرا لجريدة - «المعاصر» ، ثم ل«حولييات الوطن» ، وكان يحسن استقبال المواهب الناشئة ويشجعها احسن تشجيع .

وقد اطلق هو نفسه على شيطان شعره اسم «شيطان الانتقام والمبارزة» وقال يخاطب الشعب : «ايه شعبي» ، لقد اصطفيت لاغني آلامك . «وكان قلما يعنى في شعره بالانفعال الشخصي ، ماعدا الشفقة على هذا الشعب البائس . وقد صور آلام المدن ، آلام الموظف الصغير الكادح ، آلام العامل الذي يشقى في بناء خط حديدي لن يفيد يوما ابدا ، وصور آلام الارياف ، آلام الفلاح ، آلام الفلاحة التي تعمل في الحقل والبيت ، والتي تمضي الى الغابة لتجمع بعض الحطب فتنام هنالك نومتها الأبدية بين أكوام الثلج» (الجلد في ٧٧ الأنف الاحمر) . «من ذا الذي يستطيع ان يعيش سعيدا في روسيا ؟ «ذلكم هو عنوان اكبر قصيدة نظمها نكرازوف . وقد ظلت هذه القصيدة ناقصة لم تكتمل ، إلا أن القارئ يعلم حق العلم ان مساعي الفلاحين السبعة الذين تدفعهم أمنية من الاماني الى البحث عن رجل سعيد ستظل بلا جدوى . . . ان اسلوب نكرازوف لا يخلو احيانا من الركاقة والاسفاف ، ولكنه في بعض الاحيان يبلغ ذروة الاشرار والمؤثر .

وقد سار نارسون على آثاره ، ولكنه مات في الخامسة والعشرين من عمره عام ١٨٨٧ كان مصدورا ، وكان يشعر بانه قريب من الموت ، فكان يشعر بحاجة عارمة قوية الى الحياة والحب . وكانت هذه الحاجة تصطرع في نفسه مع تصميمه على الانصراف الى قضية الضعفاء . وهذا الاصرار يضيف على سكره في بعض الاحيان ريننا مؤلما . وبعد فمن هذا الشعب نفسه الذي يرثي لحاله نكرازوف ونادسون يرتفع صوت نيكيتين (١٨٢٤-٦١) الذي اطلقوا عليه اسم كولتزوف الثاني ، لاسلوبه الشعبي واوصافه الأخاذة . . إلا أن نيكيتين هذا يشعر بالآلام الفلاح شعورا يختلف في قوة مرارته عن شعور كل شاعر آخر غيره . . .

وقد عمد انصار السلافية ، هم ايضا الى استخدام الشعر للدفاع عن معتقداتهم . ولكن لئن كانت اشعار خومياكوف قوية ، فانها لا تمثل إلا جانبا ثانويا من آثاره . وفي مقابل ذلك نرى تيوتشيف قادرا ، عند الاقتضاء ، على

التعبير عن آراء سياسية ، إلا أن الفن الصرف هو ميدانه الحقيقي .
الفن الصرف .- ان تيوتشيف الذي ولد عام ١٨٠٣ كان من جيل بوشكين .
إلا أن أول ديوان له لم يظهر إلا عام ١٨٥٤ ، ولم يمت إلا عام ١٨٧٣ . وكان
من السلك الدبلوماسي ، فعاش مدة طويلة في المانيا ، وأخذ فلسفة عن شلنج
وشوبنهاور . وكان يصبو الى هدوء جوته ، وكان يشعر انه قريب من تشاؤم
هايني . وقد ترجم في شعر روسي جميل كثيرا من آثار الشعراء الالمان . ووقع
ابان كهولته في غرام غنيف اغنى شعره ونداه . ومع ذلك فانه يحتفظ بشيء من
الحياء الخفي ، ويؤله شعور قوي يعجز الالفاظ عن التعبير . وكان حيثما
يوجه بصره يرى سرا : فنفس الانسان سرّ ، والطبيعة سرّ والشاعر يقبل هذا
الوجود الذي هو جزء منه . ولكنه بدلا من أن يرى فيه الانسجام المطلق
والتناسق يشعر بما يغضو فيه من فوضى واضطراب ويحسّ مافيه من هوات
سحيقة ، ويحسّ ما في نفسه هو أيضاً من هوات سحيقة ، ويحسّ بما يكمن في
اللاشعور من ثورات عنيفة يضبطها العقل ضبطاً يوشك ان يفلت وينفجر في
كل لحظة ...

إن هذا الشعر الرصين ، الغني بالأفكار ، المصقول ، الذي عني
صاحبه بأحكام شكله وحسن صياغته ، كان لا بد له ان ينتظر ظهور المذهب
الرمزي حتى يقدر حقّ قدره ، بل إنه لم يقدر حقّ قدره إلا من قبل نخبة من
الناس حتى بعد ظهور الرمزية ومن بين الشعراء الذين دانوا بمبدأ الفن للفن
ليس هناك إلا شاعر واحد عرف كيف يؤثر ، وما زال ، في عدد كبير من
القراء ، وهو الكسي تولستوي (١٨١٧ - ٧٥) ومع ذلك فهو يمتنع عن تبني
أي اتجاه من الاتجاهات ، ولا يهاجم إلا الشعر ذا الاتجاه وذلك باسم الاتجاه
الفني الذي هام به هذا الشاعر ذو الروح المرفهة الحساسة . وكان يسود لو
يقف حياته كلها على عبادة الفن هذه . إلا أن معونة لاسكندر الثاني الذي
رفيق طفولته ، جعلته لا يتحرر إلا عام ١٨٦١ ومنذ ذلك الحين أخذ ينتقل
بين الغرب وروسيا ، ولا يعيش لغير الشعر ، ولغير ذلك الحب الكبير الذي

ملك عليه نفسه ، عطرَ حياته ، وتآلف آثاره من الدرامات الثلاث التي سبق ذكرها ، ومن رواية تاريخية على غرار روايات والتر سكوت خصصها أيضاً لعهد ايفان المربع ، ثم «الأمير سيربرياني» ومجموعة كبيرة من القصائد الوجدانية الغنائية . وإنه ليذهب مذهب الحلول مثل تيوتشيف ، ولكن الحلولية التي يؤمن بها مشبعة بالثقة والتفاؤل : خريير المياه ، وزفير الأزهار ، وكل شيء يعدني بجمال آخر بعيد . والفن والحب هما اللذان يملآن الانسان بهذا الجمال اللانهائي . على إن هذه المثالية لم تمنع تولستوي من الإحساس المرهف بالعالم الخارجي ، فهو شديد الانتباه إلى خصائص مناظر بلده ، وهو ذو قدرة عظيمة على السخر والمرح (لقد كان ألف مع أبناء أعمامه وهو فتى صغير جداً تلك الجمل الماثورة العذبة عن «فوزما بروتكوف») . أما قصائده البطولية والشعبية عن روسيا القديمة فهي أشبه بـ «أسطورة العصور» على ألوان برّاقة آخاذة .

ونذكر الآن الشاعر فت (١٨٢٠ - ٩٢) ، وهو شاعر وجداني فحسب ، ولعله أقرب جميع الشعراء الروس إلى الغنائية المحضة ٧٩ ، لما في أسلوبه من رنين موسيقي فالأصوات في شعره توحى أكثر مما تقول الكلمات . ومع ذلك فقد كان شاعرنا هذا إنساناً عملياً واقعياً . كان ابناً لألمانية (ولم يستطع أن يحمل اسم أبيه شفشين إلا متأخراً) وكان نموذج الملاك العملي ، وكان فخوراً بنتائج استغلاله واستثماره ، وبعد أن نشر في شبابه أشعاراً ، هجر الشعر وانقطع إلى العمل ولم يعد إلى الشعر إلا متأخراً فترجم حافظاً وجوته وهايني ، ونشر أجمل دواوينه : «نيران المساء» . وقد أخذ نظريته إلى الطبيعة من تيوتشيف وتولستوي في آن معاً : فهو يشعر بالسر ويرتعد ولكنه يشيح بوجهه عن الآلام ليتذوق جمال الساعات التي يتصل فيها بالطبيعة اتصالاً خفياً ، فتنصهر نفسه في رعشات الربيع ، وتذوب في أعشاب الغابة عند الصيف ، وتهتز على أشعة النجوم في الليل ، وإنه لشاعر الليل قبل كل شيء .

وهناك أبولون ما يكوف (١٨٢١ - ٩٧) ، وقد افتتن باليونان القديم ، فكتب درامة عن عصر فيرون ، كما نظم قصائد خفيفة عذبة على

مثال أناكويون ، وترجم بعض الآثار وهناك بولونسكي (١٨٢٠ - ٩٨) ، وهو يشعر ك بأنه ذو ميول تحررية ، إلا إنه انصرف خاصة إلى التأمل والذكرى . وهناك الدوق الكبير كونستانتان كونستانتينوفتش الذي كان يوقع قصائده : ك . س ، والذي يمتاز ببساطة جميلة رائعة . وهناك أبوختين ، وكان ينجر في الغالب إلى موضوعات مسفة تافهة . وهناك سلوتشفسكي وكانت تواتيه في بعض الأحيان دفقات خيالية مفاجئة تقربه من الرمزيين . وهؤلاء على كل حال شعراء من الطبقة الثانية .

الرمزية : - يجب ان نتظر بتأشير عام ١٩٠٠ حتى نشهد تجديداً في الشعر . لقد ولدت الرمزية في الغرب ، وانتشرت في أوروبا كلها ، كما انتشرت الرومانطيقية قبل ذلك بقرن ، داعية أوروبا ، كالرومانطيقية أيضاً ، إلى الثورة على سيطرة الاسفاف الشعري ، والمادية النفعية ، وذلك على لسان بودلير وفرلين ، وبو ووايلد ، وهاوتجان وسيتفان جورج ، ولقد استقبل هذا الاتجاه في روسيا بأسوا مما استقبل به أيضاً في غير روسيا ، لأن الواقعية وروح النضال كانت قد اجتاحت الشعر في روسيا وسيطرت عليه سيطرة عظيمة . وسرعان ما منعت شعراء المدرسة الجديدة بأنهم رجعيون ، وكان لا بد من تأييد أكبر شعراء هذه المدرسة للثورة حتى يظهر أن هؤلاء الغربيين يملكون روحاً ثورية قوية .

في عام ١٨٩٥ ظهر في روسيا ديوان شعري عنوانه «رمزيون روسيون» يحتوي عدا ما يحتوي عليه من ترجمات عن فرلين وبو وماترلنك ، على أشعار مذيلة باسم بربوزوف وغيره من الاسماء التي لا يعرفها وأعقب هذا الديوان ديوانان آخران . وفي هذه السنة نفسها ظهر الكتاب الشعري الذي لم يتورع بربوزوف من أن يعنونه «عيون آثار» ، وكذلك ظهر كتاب «في اللانهاية» من

نظم بالمونت (وقد سبقه كتاب ، «تحت السماء الشمالية» عام ١٨٩٤) . وفي
السنين التي أعقبت ذلك بذل بريوزوف وبالمونت وميرجكوفسكي ومدام
هيبوس وسولوجوب جهوداً جبارة حتى يستطيعوا أن يجعلوا الجمهور المستنكر
أو الساخر يقبل وجهة النظر الجديدة ، واجتمعت اسماؤهم جميعاً عام ١٩٠١
في الحولية الشعرية «أزهار شمالية» ، ثم في مجلة «الميزان» . على أن هؤلاء
الشعراء الذين وحدت بينهم سخریات الناس وأطلقت عليهم جميعاً اسم
«المنحليين» والذين يتفوقون فيما بينهم على المطالبة بحقوق الفن ضد «الميل»
يختلفون في أمزجتهم اختلافاً كبيراً . . . فبعضهم يثرون قبل كل شيء على
ما وقع فيه كثير من المتقدمين عليهم من إهمال للصيغة وركاكة في الأسلوب
وضعف في الأداء ، فتراهم ينصرفون إلى تجويد الأسلوب ونظم أبيات محكمة
وصعبة . وهم يستعملون بحوراً جديدة ، وقوافي أدني إلى المرونة ، كما إنهم
لا يتورعون عن الاقواء . وإنهم يبحثون عن الصورة النادرة ، ويسعون
إليها كل السعي . وألح هؤلاء بالمونت ، ولقد بلغ من ولعه بالموسيقى
الشعرية الأخاذة إنه لم يدع للعاطفة مجالاً كبيراً في شعره ، وكان يلعب
بالأضواء والصور في شعره لعباً بارعاً ، وكان يفوق عزفاً لذيداً ممتعاً في
الموسيقى ، أما فالير بريوزوف فلم يكن يملك هذه السهولة ، وإنك لتشعر إذ
تقرأ شعره إنه يلتذ التغلب على الصعوبات ، ولكنه يبلغ في كثير من الأحيان
درجة من القوة وسعة الامتداد جديدة بالكلاسيكيين .

وبعضهم يهربون من الواقع المسفّ بالفكر أكثر ما يهربون منه
بالشكل . فهم يحاولون أن يشعروك بما يعجز الكلام عن التعبير عنه ، وأن
يشعروك بالمجهول الذي يثري وراء مظاهر الحياة . وها هو سولوجوب ، في
أشعاره وفي أقاصيصه ، يصبو إلى الموت ، ويتوق إلى الفناء ، وكذلك
آنسكي الذي ترجم فرلين والذي كان يشعر ، مثل تيوتشيف ، بالغم والقلق
تجاه ما يكمن وراء النظام الظاهري في الأشياء من فوضى واضطراب . وأما
الفيلسوف فلاديمير سولوفيف ، فإنه خلافاً لذلك يسمعنا صوت الأمل

والرجاء ، ويغنيننا نداء العالم الآخر ، ووساطة العنصر النسوي الخالد ، والاتحاد بالله . وإن تفكيره لينعش شعراء بطرسبرج ، وينفخ فيهم الحركة والحياة ، وكانوا يجتمعون في صالون سيرجكوفسكي وأمرأته زينايدا أو في «قلعة» فياتشلاف . وأما أندره بيلي (واسمه الحقيقي ب . بوجاتيف) فانه يعد نفسه تلميذ سولوفييف ، ولكنه يتجه نحو الحقيقة بنفس أقرب إلى العذاب والقلق ، تنتقل من الحماسة إلى اليأس .

ومع ذلك فإنه في أحلك ساعات حياته يظل يحتفظ بأيمانه بروسيا ، ويظل يؤمن بما لآلامه من قيمة ، فهي تغذي النفس وتخلصها ، وحين جاءت الثورة ، صرخ في حماسة عظيمة «لقد انبعث المسيح» . وهو في تفكيره قريب من الكسندر بلوك ، ولكنه لا يبلغ ما بلغه هذا من قوة على التصوير الحي ، ومن بساطة رائعة . أن كاربلوك (١٨٨٠ - ١٩٢١) شاعر عظيم خالد . ولقد ظل في ذاكرة جميع من لامسهم على إنه الشعر بعينه ، على إنه الشعر قد تجسد في إنسان . ولقد كان شاعرنا هذا إنساناً حالماً يحب العزلة والوحدة . ولقد انحدر من أسرة تضم مثقفين كباراً ، ولقد كان هو نفسه على جانب عظيم من الثقافة وسعة الاطلاع ، وكان مشبعاً بروح الغرب ، وكان في أول حياته الشعرية يبدو بعيداً جداً عن هذا الشعب الذي أعاره صوته الجبار في ساعة مفجعة من ساعات حياته . . . لقد حدثنا ، في أشعاره الأولى ، إلى الغادة الجميلة (على غرار ما فعل سولوفييف) ، عن المرأة الخفية الهادية التي تسير بالرجل نحو الحقيقة . أن هذه المرأة ليست من هذه الأرض ، ولكنها تستطيع منذ الحياة الدنيا على هذه الأرض ان تتجسد لبعض الافذاذ في حب عظيم . فهي تارة الهة الشعر وهي تارة العذراء ، وهي تارة النجمة ، وأن الشاعر ليراهها في نسمة الربيع ، وفي بياض أشعة القمر . ولكن القلق والغم ما يلبثان أن ينموا شيئاً فشيئاً في قلب الشاعر ، فاذا هو يتسائل وإذا لم توجد هذه «المرأة» أولم تكن (وهذا أسوأ) إلا ابنة عادية ؟ عندئذ لم تعد هذه «المجهولة» تظهر له في سماء زرقاء من الأحلام ، وإنما ظهرت له في حانة من

حانات الضواحي وها هوذا يحاول أن يحزر سر نظرتها من وراء منديل وجهها . . . هنا تبدأ في حياة الشاعر فترة من الاضطراب والفوضى ،

وأصبحت تراوده حالات مفاجئة من الرغبة العنيفة في العب من ملذات الحياة (قصائد من ايطاليا) ، فيقبل على التهلك والسكر ، وسرعان ماتتبدد هذه الحالات إذ تخفقها الحياة اليومية الرتيبة الكثيرة . شيئاً فشيئاً يأخذ شاعرنا يتعلق بحب روسيا ، كما فعل من قبله بيلي ، فإذا بروسيا تملأ قلبه ، وتخل محل «الغادة الجميلة» التي كانت تملأ قلبه بالأمس (كوليكونفر) . . . ولذلك حين أنت الثورة رأينا هذا الشاعر الانعزالي ، ينزل من برجه العاجي ، ويسير مع شعبه ، ويخفق قلبه مع خفقان قلب شعبه . وحين تدخلت الدول الغربية في شأن أمته ، رأيته ينظم الشعر محذراً هذه الدول (السيثيون) ، ويمكن أن تعد قصيدته «الاثنا عشر» (شتاء ١٩١٨) أجمل قصيدة أوحث بها الثورة . وأنها لقصيدة عجيبة ، جمعت كل الأوزان ، وكل النغمات ، وجمعت مشاهد تبليخ أحد أشكال الواقعية وأرشق صور التحليق . . . تفرؤ ها فإذا أنت تري الثورة تسير مع الريح الزائرة ومع عواصف الثلج ، يتعهدا المسيح تتوجه الأزهار ، ومن ورائه اثنا عشر جندياً أحمر . وهكذا نرى الشاعر في بلوك يتحد مع الانتفاضة الشعبية بلا تردد أو تحفظ . ولكن الإنسان الذي فيه لا يجيد التلاؤم مع الظروف القاسية التي عرفتها هذه السنين الهائلة الرهيبة ، وها هوذا يموت ميتة حزينة عام ١٩٢١ .

«الأكميون» والاستقباليون - أن عبقرية بلوك أوسع من أطر الرمزية ، كما أن عبقرية بوشكين كانت أوسع من أن يحدها تعريف الرومانطيقية . وبينما كان بلوك يسير على خط تطوره ، كانت الرمزية في هبوط وأقول ، حتى لقد ظهرت منذ ذلك الحين اتجاهات تعاكسها وتحاربها . فمن جهة ، نرى كوزمين والجماعة التي سمت نفسها باسم «الأكمين» ، وجوميليف ، وأنا أمخاتوفا ، وماندلستام ، وجوروفسكي ، يحاربون نزعة الموت التي سيطرت على الرمزية ، برغبة في الحياة عارمة قوية ، ويحاربون الموسيقى الرمزية

برسوم دقيقة وواضحة أما خود اسيفتش فإلى تأثيرات الرمزية فيه تجتمع دقة محسوبة قاسية . ويمكن ان نقول هذه الطائفة من الشعراء ، على ما بينها من فروق طفيفة ، تتجه إلى نوع من الكلاسيكية الجديدة . ومن جهة أخرى ، في الوقت نفسه تقريبا ، ظهر الاستقباليون ، واستقبلهم الناس بعاصفة من السخرية والهزء ، كما استقبلوا من قبلهم الرمزيين عام ١٨٩٥ ، وصرّحوا ، في أول أمرهم على الأقل ، حين كانت تعصف بهم رغبة الفتیان في الشذوذ والغرابة بل الفضيحة ، صرّحوا بأنهم يريدون أن يمحووا الماضي كله ، وأن يحطّموا منطق العقل ، وأن يجعلوا مبدأهم اللفظة من حيث هي لفظة ، «لأن اللفظة أوسع من المعنى» فيما يقولون . وسنجد هذه المدرسة الشعرية ، وخاصة فلاديمير ما ياكوفسكي ، وجهها لوجه أمام الثورة .

بعد الثورة (١)

الشعر . - حين جاءت الثورة فهذمت ذلك البناء المشرف على السقوط منذ زمن طويل ، أعني روسيا القيصرية ، خشي الناس أن يعتبر الأدب تحت الانقراض فإن الكتاب المعروفين ما عدا عدداً منهم (بلوك ، بيلي ، بريوزوف ، جوركي) هاجروا او انتحروا . ولكن لئن دام صمت الشعر حتى عام ١٩٢٠ تقريباً ، فإن الشعر قد نشط منذ الشهور الأولى للثورة نشاطاً عظيماً . ولا عجب في ذلك ، فإن الشعر في جميع العصور أجود من الشعر بالارتفاع الى مستوى الأحداث العظمى . أضف إلى ذلك أن الثورة الأدبية في ميدان الشعر ، قد تقدمت الثورة الاجتماعية وسبقتها فلما جاءت الثورة الاجتماعية وجدت شعراء عظاماً يغنونها . وقد رأينا أن قصيدة «الأثنا عشر» التي نظمها بلوك هي أجمل الأشعار التي أوحى بها الثورة . كما أن فن أمثال ايسنين وماياكوفسكي ، في الجيل الذي اعقب هذا الجيل ، كان قد تكوّن قبل الثورة . الا أن الثورة قد أذكت الالهام ، وألهبت الوعي ، وأوجدت نوعاً من الحمى الشعرية ، والسكر بالشعر ، ولا يسعنا إلا أن نجني إعجاباً بهذه الوثبة إذا نحن عرضنا الظروف التي كان هؤلاء الشعراء ينظمون فيها اشعارهم : لقد كانوا يكتبون قصائدهم على جرار أو طاولة لانعدام وجود الورق ، وبعد ذلك أصبحوا يطبعونها على ورق غليظ مما يستعمل في لفّ الخواثج ، وكانوا ينشدون اشعارهم في المقاهي والشوارع ، وكان الجمهور

بينما الحرب الأهلية والمجاعة قائمتان على قدم وساق ، يتسابق على الاستماع إليهم ، ويتحمس لهم أشد التحمس ويتحزب لبعضهم على بعضهم الآخر .

وتتعارض المدارس ويستخدم فيما بينها التنافس : فهناك الاستقباليون ، أمثال سفيريانين وخليبينكوف وماياكوفسكي ، وأسيف ، وبورليوك ، هناك التصويريون أمثال اسنين ومارينهوف ، وشرشنيفتش ، وكوسيكوف ، وهناك التشويون ، الخ وهناك النبائيون ، وهناك الوظيفيون ، وهناك التشويون ، الخ . ويشترك هؤلاء في أنهم جميعاً يريدون أن يعطوا العالم شعراً جديداً ، ولكي يفعلوا ذلك تراهم يلجئون الى البحث والتنقيب عن اللون من الأسلوب والصور والتعبيرات المولدة تجعل فهمهم شاقاً عسيراً . وكان فنهم مسرفاً في الترف ارستوقراطياً بعيداً عن الشعب . وقد تراجع أخيراً هؤلاء الشعراء عن هذه المبالغات التي أحتج عليها لوناتشارسكي أحسن احتجاج .

ويجب أن نفرّد مكاناً خاصاً لثلاثة شعراء فلاحين هم : كلتشكوف ، وكيوف وأسنيق ، وهؤلاء على كونهم ظلوا في أعماق نفوسهم من رعاة التقاليد ، كانوا ينتظرون بروح مسيحية أن تكشف الثورة عن الوجه الحقيقي لروسيا الفلاحة ، وكانوا يمتقنون التقدم الصناعي اشد المقت أما كتشكوف فقد كان مصوراً قبل كل شيء . وأما كيوف فقد كان صوفياً قبل كل شيء . وأما سرج أسنين (١٨٩٥ - ١٩٢٥) فقد كان رسّام مناظر قبل كل شيء . وأثاره جميعها تفيض حنيناً الى القرية القريبة من رياز التي قضى فيها طفولته ، ولكن

لم يعرف فيها العمل القاسي في الحقول ، فهو من يعيد يلفح قريته هذه بالألوان «الزرق» التي تضيفها الذكرى على الماضي ويرش عليها غير اسطورة دينية وأنه ليولد صوراً جديدة جداً ، يستمدّها من الحياة الريفية ، ومن الحيوانات الأهلية ، وهو يسرف في ذلك اثناء الفترة «التصويرية» من حياته

الشعرية إلا أن أجمل اشعاره بسيطة وموسيقية . وقد بعثته المدينة وضيعت النجاح الذي اصابه ، وضيعة أكثر من ذلك أيضاً زواجه بايزادورا دنكان . لقد تبعها الى فرنسا وأمريكا وشعر هنالك بأنه غريب ، ولكنه شعر أيضاً بأنه غريب في وطنه حين عاد إليه فقد أرادها ثورة على الآلة ، فإذا هي ظفر الآلة ، فما كان إلا أن لجأ الى الكحول «موسكو الحانات» «اعترافات صايع» ثم لجأ الى الموت ، وكتب يقول : «لم يعد شعري هنا ضرورياً ، وأنا نفسي لعلي لم أعد ضرورياً» .

أما فلاديمير ماياكوفسكي الذي انتحر هو أيضاً عام ١٩٣٤ (وقد ولد سنة ١٨٩٢) فإن مزاجه أقوى واشعر وطبعه اصلب واعنف ، وثورته عميقة في نفسه متأصلة . لقد جاء هذا العملاق من القوقاز قوياً متحمساً ، ولم تجذبه «الاستقبالية» اليها الا لأن نفسه كانت تفيض ثورة على التقاليد الأدبية البورجوازية . وأن غنائيه العنيفة ، رومانطيقته الصارمة ، لا تشبهان في شيء غنائية أسنين ورومانطيقته . وهو في قصائده الأولى إنما يغني الحب ، كأروع ما يكون الغناء ، إلا أن الثورة قد حوّلت مجرى مواهبه «فالاناً» تمحي أمام إرادة العمل من سبيل المجموع ، وها هو يحبس كل ما يملكه «الشاعر من قوة الرنين» على الطبقة المناضلة ، ويهزّ اشعاره جندياً في الحرب كما يهزّ المقاتل رحمه : لقد عرف كيف يعبر عن ألم شعب بأسره في قصيدته عن موت لينين ، وعرف كيف يعبر عن آمال شعب برمته في قصيدته «مائة وخمسون مليوناً» وهي هجوم جبار على الرأسمالية . وحتى اسلوبه كان ثورياً : فعبارة مقطّعة ، وألفاظه عامية عن قصد ، وصوره وقوافيه مفاجئة غير متوقعة ، وأبياته قوية الرنين ، واضحة الوزن والتوقيع ، إنما نظمت لتلقى لا لتقرأ فحسب ، وكان صوت شاعرنا الجمهوري حين يلقيها يحفرها في قلوب الجماهير حفراً . ثم إن قوة المعتقدات عند شاعرنا تمنح فيه روح النكتة التي نراها واضحة في ملهاته «البقة» ، والتي تمتاز بأروع المشاعر في مسرحية «السر - المغني» التي تصور ظفر البروليتاريا ظفراً عاماً شاملاً .

وهناك شعراء بروليتاريون آخرون وضعوا أنفسهم في خدمة الشيوعية ، أمثال بيزيمينسكي ، وجاروف ، وأوتكين ، وجولود في ، وغيرهم ولكنهم ليسوا في منزلة ماياكوفسكي موهبة شعرية . أما بيزيمينسكي فإن أشعاره تغني التفاؤل الذي يريده الاتحاد السوفياتي أن يوحى به إلى الشبيبة («كوسموليا» ، «بطاقة الحزب») . وهناك دميان بيدكي ، وقد نظم قصصاً خرافية وقصائد رباعية ، شعبية جداً ولكنها لا تخرج (اللهم إلا في «الشارع الرئيسي») عن النثر المفقى وسرد الحوادث . على أن الفردية لم تمت مع ذلك . فبين الشعراء البرولتاريين هناك سفتلوف («مواعيد الليل») الذي يرتبط بالعرف الكلاسيكي ، وهناك كازين الذي ينظر إلى العالم نظرة غضة عيانية . وقد ظلت الغنائية لدى طائفة من الشعراء كانت امتداداً للعصر السابق ، وكان الثورة لم تمسها : نذكر من هذه الطائفة ماندلستام ، وأنا أخماتوفا ، وبوريس باسترنك (ولد سنة ١٨٩٠) الذي دفع ضريبة للثورة قصائد ثورية (عام ١٩٠٥) إلا أن أصالته تقوم على كونه حتى الآن الشاعر الوحيد في الاتحاد السوفياتي الذي يكمل سلسلة الشعراء الذين انصرفوا إلى الشعر الصرف وهو يقول : «إن الرسالة الوحيدة التي تقع على عاتق الشعر هي أن يكون جميلاً» .

ولقد شبّهوه بلرمونتوف من ناحية غنائيه الملتهة ، وشبّهوه بنيتشيف من ناحية نظرتة الحلولية . وعنوان الديوان الشعري الذي ضمن له الشهرة عام ١٩٢٢ هو «أختي الحياة» ، وإن هذا العنوان ليصلح عنواناً لجميع ما أنتج من آثار . إنه شديد الانتباه إلى رعشات العلم المحسوس وخفقاته ، وأنه ليحس هذه الرعشات وهذه الخفقات موسيقى ترجع في أعماق قلبه . وإنه ليجمع إلى نظرتة الجديدة للواقع قدرة على إحالة هذا الواقع إلى حلم . وهو شاعر صعب ، رغم أن ألفاظه وتراكيبه بسيطة ، وذلك لأن استعارته ذات قفزات مفاجئة غير متوقعة ، ولأنه يكره الترابط ويحتقره . أما من ناحية الوزن فإن أشعاره كلاسيكية تقريباً ، ولا بد أن نذكر أخيراً أن باسترنك الذي يعيش

التأمل والفن إنسان متوحد يعيش في عزلة عن الناس .

روايات الحرب الأهلية .- يرفع النثر رأسه حوالي عام ١٩٢٠ ، وتحل

الرواية محل القصيدة لتصوير الواقع وخدمة الدولة الجديدة . وان الروائيين السوفيتيين الأول أقل استقلالاً عن سابقهم مما يظنون في سكرة البداية ، إلا أن فنههم لا يخلو من صفات جديدة على كل حال . وهم يحبون اللوحات السريعة التي يذكرنا تعاقبها السريع بتكنيك السينما ، ويحبون الحوادث العنيفة ، والشخصيات الكثيرة ، ويحبون الاقلال من علم النفس ... فبدلاً من أولئك المثقفين البائسين الذين صورهم لنا تشيخوف وقد سيطرت عليهم الكآبة وأخذوا يحللون أنفسهم ، أصبحنا نرى الآن أنصاراً وجنوداً متحمسين قسا ، لا يراعون الحياة الانسانية ، لا حياة غيرهم ، ولا حياتهم هم أنفسهم واللغة أيضاً سريعة ، والجمل قصيرة ، والحوار يحتل منزلة هامة ، والتعابير شعبية ومحلية . فذلكم هو الأسلوب الذي يوافق الموضوعات التي عالجوها ، والتي استمدوها أولاً من الثورة ومن الحرب الأهلية فحسب . وإننا لنلاحظ في الروايات الأولى التي ظهرت في هذه الفترة نوعاً من الرومانطيقية الوحشية ، ومزيجاً من الحمى القوية والسخرية القاسية ، نلاحظ حماسة صارمة وحشية ، ثم بعد ذلك ، كلما بعدت هذه الحوادث ، لاحظنا اللهجة تخف وتعتدل ، وتوسع ، ورأينا القصص يحل محل الحوار ورأينا الكتاب يزدون تعمقاً في تحليل النفس .

ونذكر من هؤلاء الروائيين بابل الذي حاول الأدب قبل الحرب فلم يفلح ، ثم عمل في فرقة بوديني ، وقد أصدر مجموعة من الأقاصيص بعنوان «فرقة لفرسان الحمر» وفيها يصف لنا مشاهد من الحرب الأهلية ، بطريقة تذكرنا قليلاً بتشخيخوف ، ولكن لهجته مختلفة عن لهجة تشيخوف كل الاختلاف ، وهي مزيج من الحماسة الشديدة والسخرية . وهو يصف لنا قسوة الحياة ، ويجب منها جماها المفجع ، ويصف لنا مشاهد الذبح ، والسلب ، وهتك العرض وصفاً يصل فيه إلى أبعد حدود الحرية ، وتمتزج به دقة جافة ، ونوع

من الغنائية . ومن آثاره «حكايات يهودية» (ولقد كان هو نفسه يهودياً ومن أوديسا ، وفيها يصف لنا طبقة لصوص أوديسا بعين هذه الطريقة الملونة القاسية

وثمة رومانطيقية أيضاً في آثار السيبري فسيفولد ايفانوف ، وفي حياته المغامرة التي جعلته طالباً ، وبحاراً و«درويشاً» وجندياً ، وفي أقاصيصه التي عرضت الثورة عاصفة تمر على فيافي آسيا . وإن الحياة ، لدى من صوّروهم من

أشباع الحزب («الأشباع» ، القطار المصفّح رقم ١٤ - ٦٩) ، ومن الفلاحين الثائرين (الرمال الزرق) لتسترد كل قوتها البدائية الممجبة ، في قلب طبيعة متوحشة وأخطار جائمة دائمة : جوع ، وبرد ، وحرّ هائل ، وغضب ، وحب ، وبغض . وهو يقول : «يمكن دائماً صنع انسان جديد» ، وليس أسهل من قتل انسان» ، «إنما ونحن ، والوحوش في حاجة إلى دم» .

وإن الروائية سيفولنالتصف سبيريا أيضاً ، سيلوفينا هذه معلمة من أصل تترى فوصفت لنا الفلاحين وقد حررتهم الثورة («فيرينيا») ، ووضعت لنا عصابات الأطفال الهائمين على وجوههم («خارج القانون») ، إلا أن واقعيتهما التي حرصت هي على أن تجعلها فظة ليس فيها مافي واقعية ايفانوف من ألوان أخاذة .

وهناك بلنيك ، مؤلف «السنة العارية» ، وهو كاتب ينعم بثقافة عظيمة ، وهو ينفرد بكونه ثورياً تقليدياً ، ثورياً من أنصار السلافية . فهو يرى في الثورة عودة إلى روسيا كما كانت قبل بطرس الأول ، عودة إلى الروح القومية المتحررة من تأثير الغرب إنه شديد التعلق «بالعزبة التي مازالت كما كانت منذ ألف سنة» ، شديد التعلق «بالحكمة الشعبية ، بحكمتنا القديمة» على حد تعبيره ، وهو يرى في البولشفيك أحفاداً للبوجاتيريين ، ويجب أن يفرق بينهم (كما فعل أحد أبطاله) وبين «الشيوعيين» المتأثرين بالنظريات الأجنبية .

ومن بين أشهر الروايات التي تناولت بدايات الثورة ، يجب أن نذكر أيضاً رواية «تشايف» لمؤلفها نورمانوف ، وخاصة رواية «وتكون الفولاذ» ،

لؤلّفها نقولاً أوسترفسكي ، وهي رواية تصف حياة المؤلّف نفسه ، وترى تاريخ تكون طبع . وان هذا الفتى الشيوعي ، الجندي المناضل ، الذي يستمر على النضال والعمل وهو مريض ويكاد يكون أعمى ، ليقدم نموذجاً للشبيبة السوفيتية .

وكلما بعد عهد الثورة استفادت من ذلك المؤلفات التي تتناول الثورة ، فأصبحت أحسن بناء ، وأصبح لعلم النفس فيها نصيب أكبر . ونذكر الآن رواية «الهزيمة» لؤلّفها فادييف (١٩٢٧) ، وهي تصوّر الحرب في آسيا ، كما فعلت أقاصيص نسيفلود ايفانوف ، ولكن وحشيتها أقل ، ودراستها للطباع أرق وأرهف . وتقوى العودة إلى التقاليد الأدبية أكثر من ذلك أيضاً في رواية «الدون الهادي» ، لؤلّفها شولوخوف ، التي بدأها عام ١٩٣٠ ، وهي تشبه رواية «الحرب والسلام» من حيث أنها مزيج من مشاهد الحرب ومشاهد الحياة العائلية ، ومن حيث أنها مزيج من شخصيات تاريخية وشخصيات خيالية . وفي هذه الرواية نلاحظ حرص المؤلّف على الحياد وعدم التمييز ، فنراه ينصف الروس البيض ، ويعترف بما يتصفون به من شجاعة وصدق . إن هذا المؤلّف الذي عاش بين قوزاق الدون ، والذي يتحدث لغتهم ، يبرع أعظم البراعة في وصف عادات هؤلاء الناس القريين من الطبيعة ، وفي وصف أخلاقهم وصفاً حياً ملوناً ، ويعرف كيف يقحمنا في حياتهم ، فنشعر مشاعرهم ونشاركهم في مصيرهم ، وذلك خلال أكثر من ألف صفحة تتألف منها هذه الرواية .

على أن موضوعات أخرى تعرض للكتاب السوفيتيين منذ هذا الحين ، فإن الحرب الأهلية قد أصبحت من الماضي ، وينبغي الآن أن يهباً المستقبل وان تبنى الدولة الاشتراكية . فما هو المكان الذي سيحتله الكاتب في العمل الاجتماعي المشترك ؟ لقد كانت الحكومة السوفيتية ، في أول الأمر ، لاتعنى بالأدب كثيراً ، فكانت تترك له قدراً كبيراً من الحرية ، لانشغالها بأعمال مستعجلة . حتى لقد استطاعت جماعة «اخوان سيرايبون» (وهم : زامياتين ،

وفسيفولد ايفانوف ، وزوشتشكو ، وفيدين ، وكافرين) أن تكتب في بيانها ما يلي : «على الأثر الفني أن يعيش خيالاته الفردية الخاصة . ويجب أن يسمح له بتصوير عصره ، ولكن يجب أن لا يكره على ذلك اكراهاً» أما الجماعة الاستقبالية السباعية التي أحد أعضائها ماياكوفسكي الذي عهد إليه لوناتشوسكي خلال فترة من الزمن بتحرير «فن المنطقة» فهي تدعى وهي مؤسسة تستوحي الماركسية ، ولكنها مستقلة عن الحزب الشيوعي ، وتهدف عن طريق المجلات والنوادي والمحاضرات إلى تربية الجماهير ، وإلى تثقيف المواهب التي ينبتها الشعب ، وتعليمها مهنتها . وإن جوركي الذي قام بدور عظيم في حماية الأدب قد ساهم في هذه المؤسسة . إلا أن بعض الكتاب البرولتاريين لم يلبثوا مع ذلك أن وجدوا أن البرولتوكول تبعدهم عن الحياة وعن العمل الثوري . وها هي ذي جماعة «صب الحديد» تنادي بأن الأسلوب شيء ثانوي ، وإن الأدب سلاح للنضال ، وها هي ذي تكره الفردية ، وتمجد الصناعة وترى أن الصناعة هي التي ستحرر الكون ، وتستنكر قيام جماعة «ن . ي . ب» التي تشجع من سمّوا برفاق الطريق ، أي الكتاب الذين يقبلون أن يمشوا مع الشيوعية دون أن يشاركوها كل آرائها (فهم : فسيفولود ، وبلنيك ، وليونوف ، وفيدين ، وتيخونوف) ، وكان هؤلاء يصدرون مجلة بعنوان «الأرض الحمراء» . إن هؤلاء الكتاب المستقلين الذين كانوا خير كتاب عصرهم كانوا هدفاً لهجوم عنيف من قبل الدعاة إلى ثقافة برولتارية وشيوعية صرفة ، وخاصة من قبل جماعة «اكتوبر» التي تصدر مجلة إلى الجبهة» . وكان من أثر هذا الهجوم العنيف أن عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اجتماعاً خاصاً في مايو من عام ١٩٢٤ ، وبعد ذلك ببضعة أشهر صدر ذلك البيان المشهور بعنوان قرار الحزب في ميدان الآداب وهو بيان يشتمل على نظرات واسعة بشكل ملحوظ في هذا البيان ترى الحزب يعلن أنه يعارض معارضة مطلقة ان «تحتكر الميدان الأدبي منظمة واحدة» ، ويشجع «التنافس الحر بين شتى التيارات الأدبية» ، ويدعو إلى احترام التراث الثقافي

الذي خلفه الماضي ، وإلى احترام التكنيك الفني ، وهكذا ربح رفاق الطريق قضيتهم ، وفي السنين التي تلت ذلك رأينا آثاراً أدبية ممتازة تخرج من بين صفوفهم . ومع ذلك لم تكن معاركهم قد انقطعت . فحلت محل جماعة أكتوبر جماعة أخرى هي جماعة «ف . أ . ب . ب» (الاتحاد العام للكتاب البرولتاريين) ، التي كان فرعها الروسي الخاص يسمى باسم ر . أ . ب . ب ، وهو الذي ضاعف الهجوم عام ١٩٢٩ أبان مشروع السنوات الخمس الأولى . وأنذر رفاق الطريق بأن عليهم أن يضعوا أنفسهم في خدمة المشروع ، وقبلوا جميعهم تقريباً ، «الأوامر الاجتماعية» للدولة . وكان من اخلاصهم الواضح ونجاح المشروع الأول أن خفت وطأة هذا التنظيم مرة أخرى عام ١٩٣٢ ، ولكي تزول العدواة بين هذه الجماعات حلت جماعة «ف . أ . ب . ب» (فاب) ، وتألقت جمعية جديدة واحدة تضم جميع الكتاب سميت باسم (اتحاد الكتاب السوفيتيين) ، وجعل الانتساب إلى هذا الاتحاد حراً لا يشترط فيه مبدئياً إلا أن يتعهد طلب الانتساب بأن يعمل على البناء الاشتراكي بالمنهج المسمى بمنهج (الواقعية الاشتراكية) ، وإن هذه الصيغة الحرة أتاحت في السنين التي سبقت الحرب ، لميول متنوعة جداً أن تظهر ، وأتاحت لنزعة انسانية جديدة أن تلوح تباشيرها . وجاءت ضرورات الحرب فحملت الدولة على العودة إلى تشديد التنظيم . ويجب أن نضيف أن الدولة ، وهي الناشر الوحيد والبائع الوحيد تكافئ المؤلف الناجح بسخاء عظيم ، وتضمن له مركزاً ممتازاً .

روايات مشروع السنوات الخمس .- ولكن فلنعد إلى مشروع السنوات الخمس الأول حيث يقف الأدب نفسه على تغيير اقتصاديات البلاد . وحتى قبل هذا المشروع نلاحظ أن الرواية التي طبع منها أكثر عدد من النسخ في الأدب السوفييتي إنما هي رواية «الاسمنت» لمؤلفها ف . جلادكوف التي تصف استئناف العمل في مصنع من المصانع بعد الثورة . وبعد ابتداء من عام ١٩٢٩ . ظهرت طائفة من المؤلفات من هذا النوع تمجد خلق المصانع

الجديدة ، وتمجّد ضم الأراضي في تعاونيات مشتركة . فرواية «اصلاح الأرض» لشولوكوف ، ورواية «بروسكي» لبانغيروف ، تمجدان الكولخوز كما أن كاتاييف («ايه أيها الزمان ، إلى الأمام») يصف مشروع مانيتوجورسك الجبار وبلنيك («الفولجا يصب في الخزر») يصف بناء سد ، وليونيد ليونوف («النهر سوت») يصف تأسيس مصنع للورق . ان هذه المؤلفات قيمة الوثائق التاريخية . إلا أن منها ما يسمو على تلك المؤلفات المبتذلة المهددة المتكررة التي تصف الشيوعي الفاضل والمخزّب الشرير ، فيبين بقوة عظمة العالم الجديد تجاه العالم القديم ، ويتغنى بالعمل في صفجات تكاد تكون غنائية

روايات هجائية ونفسية .- ومع ذلك فقد ظهرت اتجاهات أخرى ، وانبثقت مؤلفات شخصية وخاصة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ ، وبعد عام ١٩٣٢ فلا الحماسة الثورية ولا الحماسة للعمل بقادرتين على أن تخفقا لدى الروسيين حسّ النكته ، وحب التحليل النفسي . فإنهم يحملون في أنفسهم تراث جوجول ودوستويفسكس ، والنقد الذاتي كان يشجع دائماً في الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك فهذا طريق يجب أن لا يسير فيه المرء إلا بحكمة وروية . فهذا زاميارتين رغم أنه جعل حوادث روايته «نحن» تجري في القرن السادس والعشرين ، لا يستطيع أن ينشر هذه الرواية في روسيا ، وهذا زوشتنكو يفصل عن اتحاد الكتاب . وكانت رواياته قد امتعت الجمهور وأضحكته خلال سنين طويلة ، إذ وصفت بعض جوانب الحياة اليومية في الاتحاد السوفياتي وصفاً هزلياً يبعث على الضحك ، وكانت سخرياته بريئة جداً في الغالب ، إلا أنها كانت في بعض الأحيان تخفي نقداً حقيقياً ، وكان المؤلف يجري هذه السخريات على لسان شخصية ما ، وكانت لغته سائغة عذبة لذيدة . ومن الكتاب الساخرين الهزلين أيضاً الفوتروف («الكراس الاثنا عشر» وكاتاييف (المستفيدون) ، وبولجاكوف (شيطنة) ، ومغامرات تشتشيكوف) .

أما سخريو ايليا أهرمبورج فإنها تتناول المجتمع الرأسمالي خاصة . وقد

عاش هذا الكاتب في الغرب دائماً تقريباً ، فكان يكتب للشعب الرومي يصف له البلاد الأجنبية ويتقدها وهو كاتب متنوع الميادين خصب ، وقد أوتى موهبة صحفية عظيمة بوجه خاص . نذكر من مؤلفاته «المغامرات العجيبة التي قام بها جوليو جورينيتو ومريدوه» ، وهو كتاب يطوف بنا جميع اجزاء العالم وراء محرّض مكسيكي ، ثم «تروست د . ل» وفي هذا الكتاب يتصور المؤلف الآلية الأمريكية تطمن العالم وتسحقه ، ثم «موسكو لا تؤمن بالدموع» وفيه يصور لنا الأوساط الباريزية ، ثم روايته الأخيرة الكبيرة «سقوط باريز» وفيه نرى نقداً قاسياً لاوساط فرنسا السياسية ، ونلاحظ مع ذلك عطفاً صادقاً على آلام فرنسا .

وإلى جانب هذا الاتجاه الهجائي نلاحظ أيضاً الرغبة في العودة الى التحليل السيكولوجي ، إلى التقاليد الأدبية التي عطلتها الثورة ، وذلك خاصة لدى المستقلين ، الذين لم تستغرقهم المشاكل السياسية ذلك الاستغراق التام . فمنذ عام ١٩٢٤ ظهرت رواية «المدن والسنون» لمؤلفه فيدين ، وهو لا يدرس ألوان النضال التي قامت بها الثورة وأنواع الأعمال التي حققتها الثورة ، بل درس صدى هذه الثورة في النفوس ، وترجييعها في القلوب . فبطل هذه الرواية طالب يريد ان يندمج في العالم الجديد ، ولكن عواطفه الشخصية من حب وشفقة تسيطر عليه ، فيؤدي به ذلك الى خيانة القضية .

وللمؤلف روايات أخرى (مثل «الآخوة» وغيرها) تفسح للفردية مجالا كبيرا . وهناك رواية Les blaireaux من تأليف لينيد ليونوف (١١٩٢٥) ، وهي تجسّد النزاع بين المدينة والقرية في نفس اخوين عدوين . ومن الواضح جدا ان ليونوف وفيدين كليهما تعنيهما الحياة «وراثتها الحادة القاسية» . وضعف ثباتها . بل وسخفها الحكيم «أكثر مما تعنيها المذاهب والعقائد» .

ونرى هذا الاستقلال أوضح وأبرز أيضاً لدى كافرين وأوليشا . أما كافرين فنراه في روايته «من مصور مجهول» يدافع عن الحرية المبدعة ، ويدافع عن

الرومانطيقية ضدّ النفعية وعن المشاكل الروحية والاخلاقية ضد الصناعة والتكنيك . فإن بطله الذي غلبته الحياة وانتصرت عليه ، يعيش ويخلد بالفن ، وهي رواية «الحشد» (١٩٢٧) فإن صفحاتها الموجزة ، التي تطالعك بنضارة عظيمة وألوان جديدة جداً ، فإن لها قدرة على الإيحاء خارقة للمألوف . وهي تصور لك الانسان الجديد ، المستقيم ، الفعال النشيط ، إنساناً آخر ، خائباً ، حسوداً جباناً ، وتشعرك مع ذلك بأن هذا الانسان غير المتلائم مع المجتمع لا يتصف بالدناءة فحسب بل يشعر ايضاً بحاجة الى الجمال والعاطفة ، والهروب . ولا وليشاً ايضاً كتاب خيالي جميل جداً ، كتب للأطفال وهو كتاب «الثلاثة السماء» .

روايات خيالية وروايات تاريخية . - وهناك مؤلفان اخرون اقلتا من الواقعية المسرفة وانصرفوا الى الرواية الخيالية والرواية التاريخية . واكبر هؤلاء الروائيين الكسي تولستي (١٨٨٢ - ١٩٤٦) الذي هاجر في أول الامر ثم عاد الى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٢ . وقد أعمل موهبته في جميع ميادين النشاط الادبي ، ونشر اثار متنوعة الى اقصى حدود التنوع ، ولعل الصفة الوحيدة التي تشترك فيها جميع اثاره هو انه متعلق تعلقاً عميقاً بكل ما هو روسي ، فهو وطني متحمس متطرف . من اثاره كتابه «طريق الآلم» ، الذي بدأه بباريس وانهاه قبل موته بثلاثة اشهر فحسب ، وهو لوحات عظيمة تصور الاوساط الفكرية الروسية قبل الثورة واثناء الثورة ، وبعدها ، ثم «الخبز» وموضعها دفاعة ستالين عن تسارستين اثناء الحرب الاهلية . الا ان شهرة تولستوي ترجع الى رواياته الخيالية التي تشير على غرار ولوز ، مثل Aelita التي ترينا حملة سوفياتية تساعد ثورة الكوكب السيار مارس ، ومثل «ثورة الآلات» وغير ذلك وترجع بوجه اخص الى روايته التاريخية الكبرى عن «بطرس الاول» ، وهي اثر جبار يثور بالحياة ويفيض بالالوان يمثل كل المجتمع الروسي في بداية القرن الثامن عشر ، يمثل البوير والجنود والفلاحين ، وقدمى المؤمنين المتعصبين ، وألمان سبولودا ، ويمثل على رأس هؤلاء جميعاً تلك الشخصية

تلك الشخصية العظيمة التي تفوق حدود الانسان ، تلك الشخصية الثورية التي استبقت ما حققه المجتمع الحالي من تغييرات ، يعني شخصية القيصر العظيم .

وتكاثرت الروايات التاريخية في السنين الاخيرة التي استبقت الحرب ، وما ساعد على ذلك تيقظ الروح الوطنية والكبرياء القومية ، وجاءت هذه الروايات تغذى هذه الروح الوطنية وهذه الكبرياء القومية وتقويها : منها روايات عن الثائرين المتمردين امثال ستنكارازين او بوجاتشيف ، ولكنها ايضا روايات عن ايفان المربع ، اودمترى دونسكوى او الكسندر نفسكى ، وروايات من التريخ الحديث : فسرجييف - تنسكى يصف لنا «آلام سياستوبول» ونوفيكوف بريوي التي تصور حياة بعض الاشخاص قد نالت حظوة واهتماما كبيرا فيها هو ذا تينانوف يكتب حياة بوشكين ، وكروشليبيكر ، وجربويدوف . وكانت تلك الحركة كبيرة دفعت الروس الى تعظيم اجداد ماضيهم والتغني بها وذلك قبيل اندلاع نار الحرب التي انتحنت وطنيتهم هذه امتحانا عظيما .

المسرح - لقد اجتاز المسرح منذ عام ١٩١٧ ، عين المراحل التي اجتازتها الرواية وعلى أن الأصالة والكمال في الاخراج المسرحي بروسيا لا يضارعان ، فلإننا لم نشهد الا عدداً قليلاً من الاثار المسرحية العظيمة ، كما كان الامر كذلك قبل ١٩١٧ فلإن روسيا تظل بلاد الرواية ، وكثير من المسرحيات استخرج من الروايات المشهورة الناجحة وتكاد تكون الحرب الأهلية هي الموضوع الوحيد التي تدور حوله المسرحيات في بداية الأمر ، نذكر من ذلك المسرحيتين الأخيرتين اللتين كتبهما جوركي «ابجور بولتشف» «دوستييف وشركاه» وهما تصوير كاريكاتوري لبورجوازية الاقاليك ساعة الثورة . اما الاولى فان شخصية البطل بولتشف القوية ، وموقفه من نهاية هذا العالم الذي كان عالمه ثم موته القريب هو ايضا كل ذاك يضيف على المسرحية شيئا من القوة ، وهي تصور بشيء من السخرية والفكاهة المجتمع الرجعي في اوديسا

ساعة نزول الحلفاء . وهناك «نهاية الاسطول» من تأليف كورنتشوك وهي تحدثنا عن بطولة تجارة البحر الاحمر . وبعد ذلك بقليل ظهرت مسرحيات دعاية مثل الخبز «من تأليف كيرشون ، وهي دعوة الى العمل ، وحتى قطع البالية كان لها مغاز سياسية . وشيثا فشيثا انصرفت العناية بعض الشيء الى المسرحيات النفسية وابرزها «قائمة اعمال الخير» ، و«شاب قاسي» لاوليشا ، وكذلك الى المسرحيات الفكاهية مثل «تربيع الدائرة» ، وهي لوحة هزلية جميلة تصور حياة الطلاب العاطفية وقد عقدتها ، واخيرا الى المسرحيات التاريخية فمن «ايفان المرعب» الذي صورّه الكسي تولستوي على انه يمثل الروح الديمقراطية امام البوير المتطهرسين ، وعن سوفوروف او كوفوروف . أنه يمثل الروح الديمقراطية امام البوير المتطهرسين ، وعن سورفوف او كوفوروف .

ادب الحرب - جاءت الحرب . فانبثرت لها جميع المواهب الأدبية ، كما حشدت لها جميع قوى الأمة . وهامهم الشعراء يهيمون بالناس أن حيّ على السلاح : أ . سوركوف ، دميان بيوني ، جولودني ، ن . تيخونوف ، وغيرهم كثير ، ولكن يجب أن نعترب بأن فن هؤلاء الشعراء يقصر عن مقصدهم في غالب الأحيان . أما ايساكوفسكي فقد عرف كيف يجد نبذة الشعر الشعبي ، وأما تفاردوفسكي فقد عرف كيف يخلق نموذج جندي مفعم بفرحة الحياة ، حتى امام الموت «فاسيلي تيركين» . الرجولة البسيطة الحلوة . سيمونوف فإنه ليلبغ في غالب الأحيان اعظم مراتب الرجولة البسيطة الحلوة : وان روسيا كلها لتحفظ على ظهر القلب كثيراً من قصائده أمثال «انتظرنني» ، «انك تذكر يا أليوشا» . ولقد كان سيمونوف صحفياً في الجبهة ، وروائياً ، ومؤلفاً مسرحياً وشاعراً في الوقت نفسه ، وقد ساهم في الدفاع عن ستالينجراد ، ثم صور لنا هذه المعركة تصويراً بسيطاً جداً وانسانياً جداً في روايته «الأيام والليالي» ولعل هذه الرواية أن تكون أجمل رواية انتجتها هذه الحرب . وأما مسرحياته ، مثل «ناس روسيا» و«فتى من بلدتنا» فقد ألهمت

شجاعة الشبان وأذكت حماسهم . ثم أن الحرب قد ولدت عدداً كبيراً من المؤلفات الدرامية . فهناك مسرحية «الجيبة» التي كتبها كورنيتشوك تصور لنا جندياً قديماً من جنود الثورة ، وتصور لنا القائد الذي يقتضيه تكتيك القتال الحديث ، ويضع احدهما امام الآخر . وهناك مسرحية «الغزو» التي كتبها ليونوف وهي تصور لنا آلام مدينة صغيرة محتلة ثم تصور لنا النهوض من الكبوة بتضحية شاب تائه يقدم حياته انقاذاً للحياة زعيم الانصار . وهي تشتمل على مشاهد درامية عنيفة مؤثرة . وأغزر من ذلك ايضاً الانتاج الروائي والقصصي . وها هي ذي اسماء جديدة تضاف الى الاسماء المعروفة ، الى اسماء الكسي تولستوي ، وإيليا اهرمبورج (الذي كان نشاطه جباراً) وشولوخوف وليونوف ، وكاتاييف ، وفافيف . وجميع الآثار التي ظهرت في هذا المضمار تشترك في صفتين اثنتين أولاها الحماسة الوطنية ، والثانية هي الوضوح والبساطة واحتقار التصنع في الأسلوب ، وذلك عن قصد وتعميم ، فإنها قد كتبت للشعب ، وكان لا بد من أن يفهمها الشعب . فالكسندر بيك ، في روايته ، درب فولوكولامسك ، يروي لنا بحماسة بل وبفكاهة ايضاً كيف ان ضابطاً خلق الروح الجمعية في طابوره وجعل منها ادارة قتال . وليونوف في «الاستيلاء على فيليكوشومسك» يروي لنا بدون مبالغة ولا تقطع المغامرة البطولية التي تقوم بها فرقة من فرق الدبابات . وتيخونوف يصور لنا البطولة الهادئة التي اظهرها سكان لينينجراد المحاصرون ، وكاتاييف يروي لنا بطولة المحاربين في أوديسا القبور ، وجرباتوف يصف لنا الأمل القوي الذي لا يغلب ولا يقهر في الأرياف التي خربتها الحرب «الذين لا يخضعون» ، أما الرواية «الحرس الشاب» التي ألفها فادييف فهي تقص علينا قصاً صادقاً جداً ، لا يكاد يزيد على الواقع شيئاً ، قيام شبكة من شبكات المقاومة في منطقة دونش تتألف من شباب وشابات ويروي لنا النهاية المفجعة التي انتهت اليها هذه الشبكة ، ويعرف كيف يحفظ للبطولة عبر الشباب وعطره . صحيح انه ما من أثر من هذه الآثار يعدُّ أثراً خالداً من

الناحية الأدبية ، ولكنها تؤلف الحوليات الحية المؤثرة الرائعة لأبعد فترة من فترات التاريخ الروسي .

أما في أي الاتجاهات سيسير الأدب الروسي غداً ، فإن امكانيات لاحتصر لها تفتح اليوم امام روسيا ، بفضل تيقظ الجماهير الفقيرة على الثقافة ، وبفضل ما تأتي به القوميات المتنوعة في الاتحاد السوفياتي من إغناء للثقافة ، وبفضل هذه الوثبة الجبارة التي عمت البلاد جميعاً .

فلنقصر عن التنبؤات ، ولكننف بأن نتمنى ان يستمر ، في المستقبل ، اتحاد الأدب والأمة ، هذا الاتحاد الذي صنعته المحن الأخيرة .

٥	مقدمة
٧	الفصل الاول - ادب الرواية
١٣	الفصل الثاني - الادب المكتوب قبل بطرس الاكبر
٢٣	الفصل الثالث - القرن الثامن عشر
٣٧	الفصل الرابع - الرومانتيكية
٥٣	الفصل الخامس - التيارات الفكرية الكبرى
٦١	الفصل السادس - الرواية في القرن التاسع عشر
٩٧	الفصل السابع - المسرح في القرن التاسع عشر
١٠٥	الفصل الثامن - الشعر بعد الرومانتيكية
١١٥	الفصل التاسع - بعد الثورة